الفصل الثانى والعشرون

زعامة بيمونته

١٨٥١ — ١٨٥٣

وكانت المعاهدات التى عقدها كافور فاتحة نجاح باهر ظل يرافق ما قامت به بيمونتة من أعمال حتى غدت بيمونتة المملكة الصغيرة الباسلة ، البلد الذى توجهت إليه جميع الأنظار فى أوروبا ، والحق أن دازجيلو شق طريق استجلاب عطف الرأى الأدبى العالمى فسار عليه كافور وقد رضى الدموقراطيون عن وقوف كافور موقف الخصم للنمسا . أما الأحرار والمعتدلون من المحافظين فاغتبطوا بالفشل الذى لاقاه الديموقراطيون وكذلك فرح البروتستان والجماعات المعارضة للاكليريكيين بقوانين ساكاردى . ولم تبق البلاد منعزلة كما كانت سنة ١٨٤٩ ، وكان دازجيلو قد نال ثقة الرأى الأوربى العام الأدبى بإخلاصه . فأبدى بالمرشتون تقديره الحار لموقف بيمونته ، وأخذ السياح الإنجليز ومن بينهم جلادستون الذين زاروا تلك المملكة يبشرون بارتقاء هذه الدولة المنظمة التى تختلف عن البلدان الإيطالية الأخرى ، وفى بيمونته

نفسها كاد شعور الفخار بالفوز الذى استحقته ينسى سوء أثر كارثة توفاره . وقد أصدر جيوبرتى من محل انزوائه فى باريس كتابه المعنون (أحياء إيطاليه المدنى) شرح فيه آماله فى وجود بابويه مصلحة وبين أن زعامة إيطالية انتقلت إلى بيمونته فأصبحت مهمتها إنقاذ الأمة بمساعدة فرنسه وجعل إيطاليه دولة موحدة عاصمتها روما .

وأخذت النخبة الممتازه من الأمه تتلهف على استئناف الحرب ضد النمسه حربا لا تبقى فى يدها شبرا من الأرض فى جنوبى جبال الألبه واتجه جميع الأحرار على اختلاف مشاربهم بأبصارهم نحو الملك فيكتور عمانوئيل ليسير على رأسهم ولا سيما بعد أن أخذ نفوذه بين الشعب يتغلغل ويزداد ، وكان يقضى حياته الخاصة بين اللهو العادى والألعاب الرياضية فبينما كانت زوجته على قيد الحياة أسكن خليلته فى الحديقة الملكية ، ثم إنه كان رجلا خشنا ولكن طيب القلب وكان شجاعاً لا يهاب الموت ، وبقدر ما كان يجيد الفروسية كان لا يحسن القيادة وكان يحمل فى جنبه حباً للدموقراطية ويغتبط كثيراً بمحبة الشعب على الرغم من أن — مظاهراته كانت تتعبه وكان ظريف الروح يتصل بجميع الطبقات يتفر من المراسم ، وكان الجمهور فى إيطالية يعتبره الأمير الدستورى والملك الشريف الذى لم يحنث أمام الشعب ، والجندى الذى حارب النمسه ولن يتخلف عن محاربتها . وبذلك كسب إخلاص الشعب

له وولاءه وكان يكره النمسه ويتوق إلى حرب ينتقم بها لشرف أبيه ويغسل عار توفّاره ومما زاده فى سخطه عليها تدبيرها الدسائس مع الرجعيين . وقد قرأ كتاب جيوبرتى وأشر عليه وصرح بعزمه على أداء الرسالة التى ألقيت على عاتقه فى الكتاب المذكور .

وقد اجتمعت الأحزاب ما عد الرجعيين على التأهب لحرب قادمة ، وكانت حوادث مقاطعة هس ومقاطعتى (شلزويج وهلشتاين) فى ألمانيه تنذر بنشوب حرب أوربية ، وأخذ اليساريون يشرون بمناهضة النمسة ويضاعفون بإكرام اللاجئين والترحيب بهم . وأطلقت الجريدة التى هى لسان حال فاليريو ، العنان للوزارة واندفعت فى تأييدها على أن تقوى الجيش والأسطول ، وقام (باللافيجو) قبل ذلك بدعايه نشيطة لبيمونيه وسط إيطالية وجنوبها ، وكاد حزب اليمين يطالب بأكثر من ذلك وأعاد الجنرال مارمورا تنظيم الجيش بحيث يستطيع أن يقذف بتسعين ألفاً من الجند إلى الميدان ، وبينما كانت سياسة الإرهاب فى لمبادريه مستمرة بعد استقالة كارل شفار تسنبرح ، وبينما كانت النمسه تفقد مكانتها فى نظر الرأى العالم المتمدن فى أوربا كانت بيمونته تعتز بقوتها ورقيها وتنظيمها ؛ ومع ذلك فقد كان المحافظون وقد يشترك معهم فى رأيهم آخرون كثيرون لا يعتقدون بأن بيمونته تستطيع أن تقهر النمسه دون مساعدة ، وكانت سياسة دازجيلو الخارجية تقوم على تأمين منزلة محترمة لبيمونته فى فرنسه وانجلتره ولم يكن

ينتظر أن تساعد انجلتره بيمونته بالسلاح ما لم تنشب حرب عامة فى أوربا .

ومهما كانت مودة بالمرستون لبيمونته عظيمة فانه أصر على التمسك بسياسة السلم ؛ أما فى فرنسه فكان الأمر على عكس ذلك وتفصيل الأمر أن القوة التى أوفدها نابليون إلى روما جلبت سخط الدموقراطيين ولكن ساعده الكتاب الذى أرسله إلى الجنرال فى قائد القوة على أن يحتفظ بمكانته فى قلوب الطليان .

ولعب نابليون بعد ذلك عشرين سنة دوراً خطيراً فى السياسة الإيطالية وقد أصاب فى تقديره ما اكتسبته الفكرة القديمة فى ذلك العهد من القوة الفعالية فى السياسة الدولية ، واعتقد أن فى مكنة فرنسه بصفتها حاملة علم القومية أن تضمن لأوروبا استقراراً دائماً وعهداً للسلم جديداً ، وكان يرى بأن إيطالية الموحدة والمانيه الموحدة وبولونيه المستيقظة وتحرر السلاف فى الامبراطورية النمسوية سوف تساعد أوربا على أن تنصرف إلى الرقى التجارى والتجارة الحرة وإلى تسوية القضايا الاجتماعية . وكانت قضية إيطاليه وبولونيه من أهم مواضيع أحلام نابليون فى ذلك الحين ، وكانت إيطاليه أول من جلبت انتباهه ، وقد أدرك رجال بيمونتة السياسيون ذلك وكانوا قد فكروا قبلا فى محالفة فرنسه حينما دخل كافور الوزارة ، وقد صبروا ريثما يصبح رئيس الوزارة قادراً على العمل . ولما نجح نابليون فى ٢ كانون الأول — ١٨٥١ فى

حمل فرنسه على المناداة به امبراطورا لفرنسه هاجمته جرائد تورينو وجنوة لعمله المنافى للدستور ، فغضب لهذا الهجوم المس بكرامته وطلب إلى دازجليو أن يعدل قانون المطبوعات وأن يكمم أفواه اللاجئين ومع أن دازجليو رفض اتخاذ تدابير شديدة ضد اللاجئين وتقييد حرية الانتقاد فى الشؤون الداخلية فإنه أخذ يشعر بضرورة التفاهم مع نابليون لأن النمسه كانت تهدد بالهجوم فضلا عن أن — سقوط بالمرستون قضى على آخر أمل يرتجى من انكلتره وعليه فإن إرضاء لنابليون نفى بعض الدمقراطيين المتطرفين وعرض على المجلس قانوناً يتعلق بمعاقبة من يقترف إثم الطعن بالملوك ، فارتاح نابليون لهذه التدابير ووعد بمساعدة فرنسه عندما تحتاج إليها بشرط أن تحافظ على الهدوء وأن تراقب الفرص .

وكان الانقلاب الحكومى فى فرنسه قد أدى إلى تطور ذى شأن فى سياسة — بيمونتة ، وأخذ المعتدلون وجماعات اليمين واليسار يميلون إلى الاندماج فى حزب مركزى موحد ، وكانت الاتفاقيات التجارية سببت خلافا وانفصالا بين أنصار حماية التجارة وأنصار حريتها من حزب اليمين ، فأخذ العقلاء من الجانبين يدركون خطر الأكثرية المترجرجة التى تستطيع فى كل لحظة أن تحدث أزمة وتنصب وزارة يترأسها ريفل ، وكانت الوزارة تعلم أن ريفل نفسه قد يحترم الدستور لكنه يوجد فى جماعته أناس لا يحترمونه ، وكان الاختلاف الموجود ضئيلا بين وسط حزب

اليمين ووسط حزب اليسار إذا قورن بوسعة بالاختلاف الذى يفرق جناحى حزب اليمين ، فلذلك أصبح ممكناً تأليف حزب قوى متجانس يجمع بين الوسطين المذكورين ، وقد فرح كافور للتقرب الذى بدأه بين الوزارة واليسار لأن الانقلاب الحكومى فى باريس والخصومة الصريحة التى أبداها بعض أنصار ريفل ضد الدستور قد أقنعتاه بضرورة الحصول على قوة ضد الرجعيين . وكان يشارك غيره شعور الاستياء المتزايد من رغبة دازجليو فى التفاهم مع روما والنمسا ، بثمن فاحش جداً ، وكان يريد أن يخلق الفرص لا أن يترقبها كما هو شأن دازجليو ، وكان رتازى منذ مدة طويلة متشوقا إلى اندماج الوسطين وما أن اقتنع كافور بصواب الفكرة الا وتم الاتفاق بينهما على الأساس . ولما عرض الوزير ديفورستا تعديل قانون المطبوعات على المجلس قرر رتازى أن يؤيد الحكومة بجماعة الوسط فى حزبى اليسار وقرر كافور من جانبه أن يقطع علاقته تماما مع أقصى اليمين وطلب إلى زملائه أن يسيروا معه فى سياسة تقدمية ، وإذا علمنا أن الأمر تم باتفاق خصوصى عقد بين كافور ورتازى يتضح لدينا جسارة كافور وجرأته ، وهكذا تم إتحاد الحزبين الذى أعلنه أثناء المذاكرة حول قانون ديفورستا ، وكان من نتيجة هذا الاتحاد الجديد أن انتخب المجلس رتازى رئيساً له منافساً بذلك مرشح الحكومة وبعد أزمة استمرت مدة من الزمن استقال كافور وزميله فارينى من الوزارة فى شهر أيار .

ولم ير كافور الوقت مساعداً لاستلامه الحكم فأخذ يتساهل مع دازجيلو ليحول دون مجيء وزارة رجعية وليستغل صيت دازجليو فى انجلتره لاكتساب عطفها ، وأخذت خصومة كافور تشتد بعد ذلك حتى سقطت وزارة بالمرستون فتحرج الموقف السياسى كثيراً ، وكان لا يزال يميل إلى التريث لو لم يحدث حادث فجائى نشأ عن موقف الملك بشأن قانون النكاح المدنى إذ مر هذا القانون من المجلس النيابى بعد أن أقره لكن البابا عارضه معارضة شديدة على الرغم من أنه كان مرعياً فى النمسه منذ مدة طويلة وفى فرنسه منذ عهد الثورة ، وحاول دازجيلو عبثاً أن ينال موافقة البابا فأرسل الملك إلى البابا كتابا يلتمس فيه تذليل الصعاب فى وجه الموضوع فأجابه البابا بجواب قاسى اتهمه بأنه يروج التسرى إشارة إلى أن النكاح المدنى لا يحلل الزواج بين الزوجين فما كان من الملك إلا أن انحاز إلى جانب الاكليريكيين رغم أنه طالما ظهر بأفعاله احتقاره — للروابط الزوجية وأعلن بأن ضميره لا يطاوعه على إقرار القانون الأمر الذى شجع الأعيان على رفضه فقدم دازجليو على أثر ذلك استقالته فى ٢٢ — تشرين الأول وانزوى فى معمله ليكسب معيشته بريشته .

وكان كافور الخلف الطبيعى لدازجليو فاضطر الملك مكرها أن يكلفه بتأليف الوزارة مشترطاً عليه أن يتعهد بالاتفاق مع روما

ولما رفض كافور ذلك انتهز الملك الفرصة ودعا بالبو وريفل إلى تقلد الحكم على أساس البرنامج الآتى :

« الدستور لا أكثر ولا أقل » ومعنى ذلك الاكتفاء بالحد الأدنى من الإصلاحات والتساهل فيما هو مصلحة روما . إلا أن وسط اليمين رفض معاضدة بالبووريفل ومع أن الأول كان يعارض كل تشريع ضد الاكليروس فقد أبى أن يتساهل فى قضية فرانسونى واعترف بإخفاقه فى تأليف وزارة دستورية ؛ فاضطر الملك ثانية إلى الالتجاء إلى كافور بشرط أن لا يجعل قانون النكاح المدنى مسألة ثقة ، وقد ظل أكثر أعضاء الوزارة المستقيلة أعضاء فى الوزارة الجديدة التى سارت على أثر الوزارة السابقة فأهمل قانون المدنى . أما السياسة الخارجية فلم يطرأ عليها أى تبدل ، وقد أسرع كافور إلى تهنئة نابليون بمناسبة العيد السنوى للانقلاب الحكومى الذى نودى فيه نابليون امبراطوراً .

وبرهن التقدم الهادىء على رضاء الشعب على الحكم الملكى الدستورى فاعتادت الناس الحياة الدستورية حتى كأنها وليدة أجيال مديدة مع أن بيمونته لم تظفر بها إلا حديثاً . وكذلك دل فشل الرجعيين المستندين إلى نفوذ الكنيسة على قلة نفوذهم بين الشعب وكان الجمهوريون أقل من أن يستطيعوا تأليف حزب ، ودلت النشرات التى كانت تحمل على مازينى خصومة مازينى الرأى العام له . وكان القسم الأعظم من الجمهوريين قد التجأ إلى باريس ولندن .

ومكث مازينى فى لندن مع فئة صغيرة من أصدقائه المخلص غير مستسلم للفشل وظل يحلم باليوم الذى يهب فيه الشعب من سباته فيسود فيه الحق .

وكان الكثير من أصحابه قد انفصلوا من حوله إلا عددا قليلا من الجمهوريين فى وسط إيطالية وجنوبها ، وكانت كل مدينة تحتوى البعض من جمهورى سنة ١٨٤٨ ، وكانت جمعيات التعاون للعمال عبارة عن تشكيلات جمهورية وراء المظهر الاجتماعى ، وقد كانت هذه التشكيلات فى ريبة من حركة بيمونته الدستورية شأنها فى ذلك شأن مازينى وكان لها فى لمبارديه بطبيعة الحال منبع الشغب رغم موت عدد كبير من زعمائها ونفيهم إذ لم يعتر الروح القومية الوهن ، وظلت الأبواب موصدة بوجه الضباط والموظفين النمسويين وكانت أقل إهانة يلحقها ضابط نمسوى للمبارديى تؤدى للبراز ، مما أودى بحياة كثير من النمسويين والطليان ، وقد مال كثير من أحرار لمبارديه إلى سياسة التريث إلا أن الأشراف الأحداث ظلوا متمسكين بأحرار بيمونته وباللاجئين فى تورينو . وكانت جماعات من أصحاب الحرف وبعض الرهبان يعدون المؤامرات فيقمعها النمسويون فى شدة هائلة وقد نشطت التشكيلات السرية واتسعت حتى اتصلت بلجنة مازينى المركزية فى لندن وأعدت فى سنتى ١٨٥٠ و ١٨٥١ مؤامرة قوية واسعة النطاق تستهدف القيام بثورة حين حدث الانقلاب الحكومى فى فرنسه إلا أن العقلاء

من أعضائها اعتقدوا بأن العصيان قد فات وأن الأنظار يجب أن تتجه نحو بيمونته ، ولكن السلطات النمسوية قد ارتابت من الأمر وقبضت على أحد المشتبه منهم وبعد جلد استمر ثلاثة أيام أجبر على الاعتراف بأسماء الزعماء فقبضت على الراهب تزولى فى مانتويه وأوقفت مائتى صانع وتاجر وأنزلت بهم أفظع أنواع التعذيب للحصول على اعترافات أخرى ، ولما لم توفق إلى ذلك صلبت تزولى وأربعة آخرين فأغضب هذا الحادث اللمبارديين وفكر البعض فى الانتقام من السلطات النمسوية بإحياء الأيام الخمسة ودعت جماعة من الصناع فى ميلانو مازينى لمساعدتها ، ولما شجعها على العمل تقرر أن تكون الثورة فى أحد الأعياد الدينية يشترك فى الاحتفال بها ، ولما لم تكن الظروف ملائمة فقد فشلت الحركة فى مهدها وفر الزعماء إلى الخارج وعدل جمهوريو جنوه عن مساعدتها فى اللحظة الأخيرة . وكذلك أخفقت الحركة فى الرومانى وفى روما وانتهز النمسويون الفرصة لإنزال الضربة القاضية على الأحرار فشنقوا أربعة وعشرين شخصاً من المتآمرين ، وأجلوا ستة آلاف من أهل تسينا كباراً وصغاراً ، رجالا ونساءاً إلى خارج الحدود نكاية بسويسره لقبولها اللاجئين .

ولم يكف ذلك كله للتخفيف من غضب المارشال الشيخ رادينسكى فقد كان يحنق كل الحنق على أشراف ميلانو الأحرار وقد التجأ أكثرهم منذ خمس سنوات إلى تورينو وجنوه فصار

يوجه المسؤولية على بيمونته ويتهمها بتحريض اللاجئين الأغنياء إليها لأنها آوتهم فى بلادها وتشجعهم على المؤامرة ضد جارتها . وقد صدرت إرادة الامبراطورية بمصادرة أملاك جميع الذين تركوا البلاد لأسباب سياسية ، فجاء هذا العمل مخالفاً الحقوق التى أيدتها المعاهدات . لأن الأشراف كانوا قد تجنسوا بالجنسية البمونتية ، وقد كفلت المعاهدات صيانة أملاك البيمونتيين فى لمبارديه وفينسيه ، مع العلم بأن كافور قد اتخذ أشد التدابير لمراعاة أحكام الاتفاق وأقام سياجاً من الجنود على طول الحدود ليحول دون تسرب المساعدة من جانب بيمونته إلى المتآمرين ، وقد صادر بصورة غير مشروعة بيان مازينى وطرد كريسبى وآخرين من جمهوريين من البلاد وعليه فإنه استدعى السفير البيمونتى من فينا وقدم احتجاجاً شديد اللهجة على مخالفة النمسه للاتفاقيات لو لم يمنعه دازجليو لقابل عمل النمسه بالمثل فصادر أملاك الرعايا النمسويين فى بيمونته ، وقد عاضدت فرنسه وانجلتره بيمونته فى حملتها معاضدة قوية . وبذلك حكمت أوربا على النمسه حكماً أدبياً وكان ذلك فوزاً باهراً لسياسة كافور . وظهر تأثيرها فى المجلس النيابى حينما اقترح على لائحة التضمينات الكبيرة لتعويض ضحايا الإرادة الامبراطورية . أما الجدال الذى تلى الاحتجاج فبرهن على صعوبة بقاء بيمونته والنمسه متجاورتين مدة طويلة .

الفصل الثالث والعشرون

مؤتمر باريس

١٨٥٣ — ١٨٥٦

كانت سنة ١٨٥٣ حافلة بالكوارث والبؤس إذ فتكت الهيضة بالنفوس وقضى المرض على الكروم وانتشرت الفاقة فى جميع الأطراف بسبب رداءة المحصول والأزمة التجارية ، وأدت الضرائب الباهظة والدسائس الاكليريكية إلى اضطرابات خطيرة فى منطقة (آوسته) وهاجمت الجماهير فى تورينو دار كافور وكادت تقضى على حياته . وعلى الرغم من أن الحكومة قد أصلحت شؤون المالية فإن الموازنات كانت لا تزال تحتوى قروضاً جديدة وضرائب جديدة ، ولم يمنع هذا أكثر البيمونتيين من التمسك بالدستور كل التمسك ؛ ولما رفض مجلس الأعيان مشروع كافور بشأن تنظيم المصرف القومى قرر كافور استفتاء الأمة بإجراء انتخابات جديدة ، وقد جاءت الأكثرية فى جانب الحكومة فأعيد انتخاب جميع أعضاء الوزارة . وكادت الواردات تزداد ثلاثة أضعافها ، أما الصادرات فزادت خمسين بالمائة ، فلذلك كانت الحكومة قوية فى البلاد وفى البرلمان رغم الفاقة والضرائب ودسائس الرهبان المستمرة .

ودل دخول رتازى فى الوزارة على مقدار الثقة التى تتمتع بها الحكومة من حزب الوسط ، وقد أدت المكانة التى نالتها الوزارة العظيمة إلى إقدامها على القيام بأعمال موفقة فى السياسة الداخلية والخارجية وإنقاذ البلاد من نير الكنيسة وتوثيق عرى التحالف مع فرنسه . وعرضت الحكومة فى أوائل سنة ١٨٥٥ مشروع الاصلاح الاكليريكى الثالث الخطير الشأن ، وكانت قوانين سكاردى قد حالت دون تدخل الكنيسة فى وضع القوانين ، وكما مر معنا فإن قانون النكاح المدنى يستهدف منع كل تدخل اكليريكى فى حياة الأسرة ، وقد استحسن الرأى العام تأجيل هذا المرسوم حينذاك إلا أنه ألح على أن تشرف الحكومة على واردات الكنيسة ، وحالما دخل رتازى الوزارة وعدت الحكومة بإلغاء الأديرة وبمشاطرة الاكليريكية فى وارداتها وإلغاء الإعانات السنوية التى تدفعها الخزينة للاكليروس ، وحسبنا فى إدراك أهمية ذلك أن نعلم أنه كان فى المملكة التى يبلغ عدد نفوسها خمسة ملايين (٦٠٤) أديرة وصومعة يقطنها (٨٥٠٠) شخص فلكل (٢١٤) نفساً من الأهالى إكليريكى واحد ؛ بينما الحال فى بلجيكة لكل (٥٠٠) شخص وفى النمسه لكل (٦١٥) شخص . وكان الذين يعطفون على الاكليريكيين أو الذين يميلون إلى وجود (كنيسة حرة) مثل كافور يؤثرون ترك الكنيسة حرة التصرف فى أملاكها معتبرين تقسيم الواردات الاكليريكية من القضايا التى تخص

الكنيسة ، ومقابل هؤلاء هناك المطالبون بإصلاح الكنيسة وخصوم الاكليروس الذين يرتأون أن تقوم الحكومة بإدارة أراضى الاكليروس وأن يكون لها حق إلغاء الإدارة وتخفيض عدد الأسقفيات ومقاسمة الاكليروس وإرادته .

وعارض كافور بشدة سياسة من هذا النوع إذ كان يقول بأن الاكليروس الذى يعيش بأموال الحكومة من دون أن يكون له عائلة وأملاك خاصة يغدو طائفة محرومة من الرابطة الاجتماعية التى تربطها بباقى الهيئة الاجتماعية لا علاقة لها بتشكيلات الدولة ، وسوف تظل خطراً على الدولة على أن كافور كان يدرك بأن البلاد تمقت الاكليروس حتى أنها لتفضل الخضوع إلى النمسه على أن تخضع للرهبان . وظل البابا بيوس متمسكا بسياسته التى لا تعرف التسامح واللين . وكان كافور يلجأ إلى مفاوضة روما آملا الحصول على موافقتها ولكن المفاوضات أسفرت عن رسالة بابوية عامة شديدة اللهجة اتهمت المشروع بالإباحية وهددت بالحرمان الكنسى فيما إذا نفذ . فأجاب دازجيلوا بعنف أنه يعتبر تلك الرسالة العامة خروجاً على الدولة . وكانت الحكومة قد نشرت لائحة القانون قبل مدة وجاوزت فيها حدود اقتراحات دازجيلو بإلغاء الجمعيات الدينية والإدارة والمرتبات الدينية التى تنفق — على الأنفس أو على جماعات دينية . ولما عرضت اللائحة على المجلس النيابى أيدها حزب الوسط واليسار وقبلت بأكثرية ساحقة .

أما الاكليريكيون فكانوا يستندون إلى مجلس الأعيان وإلى الملك وأيقنوا أنهم سينجحون فى تمثيل الدور الذى مثلوه فى قضية قانون النكاح المدنى . وقد تخاير الملك قبل ذلك مع روما مخابرة ودية مؤملا أن يصل إلى تفاهم ، وحدث فى خلال هذه المخابرات أن أصيب بنكبة هائلة زادت فى مخاوفه ، ذلك أنه فقد أمه وزوجه وولده فى شهر واحد فسرعان ما استغل الأكليريكيون هذا الحادث واعتبروه غضباً من الله . واقترح الأساقفة المعتدلون الذين بذلوا جهدهم فى التأليف بين الحكومة وردها أن يدفعوا من وارداتهم الكنسية مدة ما ، قدر الإعانة التى تدفعها الحكومة ، على أن تسحب الحكومة قانون الألفات ، ولما رأى كافور أن الملك يميل إلى هذا الرأى قدم استقالته ، فكلف الملك (دوراندو) وزير الحربية لتأليف الوزارة ولكن هياج الرأى العام بلغ الذروة حتى أن دوراندو أخفق فى إيجاد زميل يؤزاره فى تحمل المسئولية ، فأدرك الملك أنه سوف يفقد حظوته لدى الشعب وأن تورينو فى حالة شغب خطرة وأن تمادى الأزمة يؤدى إلى اضطراب وسفك الدماء ، وبناء على مشورة دازجيلو عاد فأناط رئاسة الوزارء بكافور . ولم يستطع كافور أن يحصل على موافقة مجلس الأعيان على القانون إلا بأكثرية ضعيفة ، وبعد تعديلات تكاد تستثنى نصف الأديرة الأمر الذى أسخط الرأى العام واعتبر هذا الحل تواطوءاً ، وكان كافور بين أمرين ، فإما أن يوافق على التعديلات وإما أن يسبب أزمة دستورية قد تهز العرش

وتهدر السياسة الخارجية . وكان كافور يرمى فى سياسته الخارجية إلى جلب رضاء فرنسه آملا أنه قد يحين الوقت الذى تسوق فيه جيوشها عبر الألب لطرد النمسويين من لمبارديه وفنيسيه ، وكان قانعاً بأن بيمونته وحدها لا تستطيع أن تنتصر فى حرب هجومية ، ومع ذلك كان يقدر عورة الطريق التى يريد أن يسلكها بالاعتماد على حليف طموح لا ضمير له ، على أن كافور لم يكن من الرجال الذين يحجمون عن استخدام الوسائل المريبة إذ لاح له بأنها توصله إلى الهدف المقصود ، وكان يؤثر سلوك الطرق السياسية على الالتجاء إلى الطرق الثورية . ونشبت الحرب الأوربية ضد روسيه فطورت الموقف إذ كان الحلفاء على أتم الأهبه لشراء أو استجداء أية مساعدة من أى جهة كانت وكانوا يرغبون أولا فى استمالة النمسه التى تستطيع أن تشل توغل الروس فى البلقان ، وكانت النمسه تريد أن تبقى طليقة اليد لا تتقيد بشىء ، وأخذت تساوم فى مقترحات الحلفاء وحجتها فى ذلك أنها إذا حشدت جيشها فى الشرق فأن بيمونته تنتهز الفرصة للهجوم على لمبارديه . وكان الحلفاء قد عرضوا صيانة الحدود الإيطالية طول مدة الحرب إلا أنهم رأوا أن أحسن جواب لمساومة النمسة هو أن يقنعوا بيمونته بالدخول فى الحلف وإرسال قسم من جيشها إلى الشرق ، فأخذوا منذ أوائل سنة ١٨٥٤ يلاطفون حكومة تورينو ملوحين لها باستمرار بأنهم سيقنعون النمسه بالتخلى عن لمبارديه لقاء ممتلكات جديدة يعطونها

إياها فى الشرق ، ولـكنها إذا ترددت فى الأمر فإنهم سوف يساعدون النمسه على احتـلال الـكسندريه . وكانت هناك حوافز للإصغاء إلى الدول الغربية أهم من كل ما مر ، فـكافور أدرك بثاقب نظره أنه إذا أصبحت النمسه حليفة للحلفاء بدلا من بيمونته فستظل فرنسه وانجلتره مدينتين لعدوتها ومستاءتين منها وهنا أصبحت سياسة كافور بأجمعها فى الميزان ؛ فقبل مقترحات الحلفاء بلهفة وعرض عليهم إرسال قوة إلى القريم .

ومع أن الملك كان بجانبه فإنه لم يلق أى معاضدة لمشروعه هذا فى الوزارة ، حتى أن وزيرين من وزرائه هدداه بالاستقالة ، وكانا يريان أنه من الطيش والمجازفة نهك قوى بيمونته وبذلها فى نزاع ناشب بين الآخرين مع أنه يجب الاحتفاظ بها لتسخيرها فى مطامعها القومية الخاصة ، وقد تريث كافور حتى استطاع فى نهاية الخريف استمالة زملائه إلى رأيه ، ولما طلب الحلفاء فى كانون الأول سنة ١٨٥٤ إلى بيمونته محالفتهم بصورة رسمية قررت الحكومة تلبية الطلب مشترطة أن تمنحها انجلتره قرضاً لا يقل عن مليون جنيه استرلينى ، وأن تعتبر بيمونته حليفة لا أجيرة فتشترك فى جميع المؤتمرات المحتمل عقدها مدة الحرب وبعدها وأن تتعهد الدول الغربية فى معاهدة سرية بأن تقدم بمسعى جديد لإلغاء عملية حجز الأملاك فى لمبارديه ، وأن تنظر بعين الجد فى موقف إيطالية من حيث آمالها القومية . فلم تمل إنجلتره وفرنسه إلى قبول هـذه

الشروط لأن النمسه قد انضمت إلى الحلف ورفضتا أن تسجلا فى المعاهدة أى تعهد ، وبهذا أصبحت الوزارة أمام أمرين إمّا الحلف بلا قيد ولا شرط أو العزلة .

وكان الملك يؤثر انسحاب الوزراة على ترك الحلف كما طلب اللاجئون اللمبارديون العدول عن الشرط المتعلق بالحجز على أملاكهم .

وبهذا وقعت الوزارة على المعاهدة فى ٩ كانون الثانى ١٨٥٥ . ودهش الرأى العام البيمونتى لذلك كل الدهشة ، وبدا له أن هذا المشروع جرىء عجيب إذ لا يكاد المرء يرى أية مصلحة للبلاد ؛ ولكن كافور بذل جهده وسخر ذكاءه وحذاقته لحمل المجلس النيابى فى إقراره . وقد لقى كافور فى ذلك صعوبة عظيمة فلم يستطع الناس أن يفهموا كيف يجوز لبيمونته أن تحارب روسية التى لم تخش مطامعها يوماً ما بينما ظلت بروسية محايده والنمسة متفرجة فضلا عن أن هذه الحركة تتطلب التضحيات فى النفوس والأموال وتستدعى قروضاً باهظة سيحمل الناس عبأها على كاهلهم وسيكبدون ضرائب جديدة ، والأغرب من ذلك كله أن تقف بيمونته بجانب النمسه وتساعد مضطهدى السلاف الثائرين والواقع أن البلاد بأجمعها لم تشعر بخطر العزلة إلا قليلا ، ولم تكترث لأهمية منح بيمونته صوتاً فى المؤتمرات الأوربية ورفعها إلى مصاف حليفة الدول الغربية ، وجعلها المحامية عن قضية إيطالية مما تتضاءل معه

كل تضحية مهما كثرت ، وأخيراً أقر المجلس النيابى المعاهدة بخمسة وتسعين صوتاً ضد أربعين صوتاً .

وكان صيف سنة ١٨٥٥ دور قلق لبيمونته فلم يصل أى خبر بالانتصار من القريم ، وكان كل فشل يؤدى حتماً إلى انتصار الاكليريكيين فى الداخل انتصاراً حازماً ، وقد مثلت القوة الصغيرة البيمونتيه البالغة عدداً (١٧٠٠٠) دوراً سلبياً لا شأن له فى المعارك ولكنها أدت واجبها فى حماية جناح الحلفاء الأيمن كما يجب ، وتفوقت بخدمات ميرتها وشئون صحتها السيارة الجيدة فكانت على نقيض ما قد انتاب الميرة الانجليزية من فوضى .

ولما اشترك الجنود البيمونتيون فى القتال فى وادى جونايا فى وسط آب ، وهنا يجب ألا ننسى أن الإفرنسيين هم الذين واجهوا صدمة القتال فإنهم أدوا واجبهم بكل بسالة حتى زعم كافور أنهم غسلوا عار نوفاره . وأخذ الناس يصدقون القول بأن (طريق القريم يوصل إلى لمباردية) وأن (فى خنادق القريم تبنى الوحدة الإيطالية) وأخذ الناس فى إيطالية يستبشرون باشتراك بيمونته فى الحلف ويعتبرونه رصاصة فى مسدس انطلقت من أذن النمسة ، والواقع أن الظفر فى القريم خدم مصير إيطالية أكثر من جميع الخطب والمقالات التى دافعت عن قضيتها فى أوربا الصماء .

وكان كافور على حق حين طلب إلى الحلفاء بأن يهتموا لحالة إيطالية ، فلم يكن فى روما إلا الفساد والفوضى وليس فى لمباردية

والروماني سوى استبداد عسكري غاشم ، وساد الطغيان نابولي ففي روما لم يؤيه لمجلس الدولة إلا قليلا ، وقد حاول المجلس المالي أن يدعم حقه الاسمي في الإشراف على الميزانية بيد أن الحكومة أهملت أمره حتى أمسى بمرور السنين لا شأن له ولا قيمة ، وأصبحت الدعوى التي كثيراً ما تكررت بقبول العلمانيين في جميع الوظائف حبراً على ورق ، فالعلمانيون لم يشغلوا إلا المناصب الثانوية ، وكان جميع الرؤساء في الوزارات ما عدا الحربية وجميع الولاة وجميع كبار القضاة من رجال الدين . وكانت المجالس العمومية خاضعة لإرادة الحكومة كل الخضوع ، ولم يمنح حق الانتخاب إلا لأولئك الذين سلموا من الأخطاء السياسية والدينية . فاقتصر التمتع بهذا الحق على جماعة صغيرة من أغنياء الملاكين .

ولم يكن الحكم الصالح في نظر رجال الإدارة في روما إلا من الأمور الثانوية ؛ فهمُّ الكرادله اقتصر على محاربة التفكير الحر والحيلولة دون تقدم علم الطب . ناهيك ما كانت تقترفه محكمة التفتيش من مظالم ، وقد زج أحد الناس في السجن لأنه لم ينزع قبعته في الكنيسة ، وعذب أحد مواطني فيرمو إلى حد الموت لأنه كفر . وبينما كان انتونللي والكرادلة السياسيون يذرون الرماد في عيون أوربا أو أنهم يهددون فرنسة بالنمسة كانت عصابة السانفيديست المحمية من قبل الكرادلة تقبض على زمام الدولة . وقد أصبح (جالي) يفضل الطريقة المخزية التي اتخذها في

إدارة الخزينة ثرياً كما أثرى انتونللى بطريقة غير مشروعة ، حتى اضطر إلى تقديم استقالته على أثر الفضيحة التى شاعت عن علاقته بمصرف روما وظل (البير) الرجل الذائع الصيت مراقباً أولا لشئون الجمارك إلى أن اضطر إلى الهروب ليسلم من يد القضاء .

أما شريكه ماردونى الذى حكم عليه فيما مضى لثبوت جرائم الغش والسرقات عليه ، فكان يرأس الشرطة السرية ، وكانت المحاكم تتخذ جميع الوسائل لمطاردة الأحرار . وبلغ الاضطهاد حداً يصح القول معه أن أربعة آلاف من الأهليين كانوا فى السجون ، وزاد عدد الموقوفين السياسيين على ألف شخص كانوا كلهم فى حالة مزرية من حيث السكنى والمعيشة ، وكانت المحاكم النمسوية قد أعدمت منهم مائتين نفراً رمياً بالرصاص فى أيالة بولونية وحدها ، وكانت الحكومة لا تستطيع الاعتماد على جنودها ولا على شرطتها ، فالمعتدلون الذين اتخذوا كافور قدوتهم ، والجمهوريون الذين اتخذوا مازينى أملهم كانوا يتزعمون جماهير الأهليين كلهم ، وكان انتونللى يعلم جيداً أن القوات النمسوية وحدها هى التى تحمى حكومته من سقوط فجائى .

أما فى نابولى فقد قبض فرديناند على زمام الحكم بيد شديدة جداً ، وكان مغتبطاً بأنه الأمير الوحيد الذى يعلم السر الذى يستطيع به انقاذ الهيئة الاجتماعية الأوربية ، وأن الثورة لا تقمع إلا بيد من حديد وأن التساهل مع الأحرار ينتهى إلى الخضوع إليهم ، ولم

يأبه قط للرأى العام الأوربى الذى كان ينعته بالوحش عدو البشر . وكان يعتبر انسحاب بالمرستون نصراً باهراً لقضية المحافظة على نظام العالم الأدبى ، وكان يعتمد على عون قيصر روسيه وامبراطور النمسه ولا يعبأ بفرنسه وانجلتره .

أما فى صقلية فبعد أن دشن نائب الملك أعماله باضطهاد فظيع أخذ يحاول استرضاء أهل الجزيرة بتخفيف وطأة الشدة وإصلاح حالة الطرق التى كانت اقتصاديات الجزيرة فى أشد الحاجة إليها ، وقد أغضب ذلك فرديناند فاضطر إلى الاستقالة ثانية وعين أحد صنائعه فى البلاط بدلا عنه ، واشتد طغيان الملك حتى أخذ اليسوعيون أنفسهم يتذمرون معه ويمقتون عليه . وكان الجواسيس والشرطة زبانيته وآلاته فى هذا الإرهاق ، وأعد سجلات خاصة عن سلوك الموظفين السياسيين ، ولما كانت الطبقة الوسطى هى العنصر الحى فى البلاد ، فقد غدا إرهاقها شغل الملك ؛ ولكن كان يوجه رعايته للطبقات المنحطة وشبه المجرمة ويسخرها فى مآربه ، فكانت تعتمد عليه وعلى شرطته لتعيش من دون عمل .

وكانت الأمور فى الشمال — شأنها فى كل وقت — فى حالة لا بأس بها ، ذلك لأن النمسه أخذت على أثر الاحتجاجات التى أقلقت راحتها لمناسبة الحجوز تخفف الوطأة عن الناس وكف موظفوها عن المظالم الفظيعة وألغى قانون الأحكام العرفية ورفع الحجز عن كثير من الأملاك ، وأعيد تأسيس الجمعيات المركزية

ولكن هـذا كله لم يرق فى أعين القوميين ، فكتب مازينى من انزوائه : « نحن لا نريد من النمسه أن تكون شفيقة بنا وذات سياسة حرة فى بلادنا لأن ذلك فوق قدرتها ، حتى إذا هى تمنت ذلك وإنما الذى نريده منهـا هو أن تذهب » . ولا يفوتنا القول بأن صرامة الإدارة العسكرية قد منت التجارة بخسارة فادحة وظلت الشركات المساهمة مترددة خشية الأزمات السياسية المحتملة الوقوع دائماً ، وبلغ ما أنفق على الإدارة النمسوية من الضرائب غير الاعتيادية والقروض ثلثمائة مليون من الليرات خلال السنوات العشرة التى تلت سنة ١٨٤٩ ؛ ومع ذلك فإن الحالة هناك كانت أحسن مما هى عليه فى روما ونابولى . وكادت هذه السياسة التخديرية التى روعيت نكاية بالأحرار أن تخدر البلاد فعلا وتبسط عليها ظلا من الاستسلام الكئيب . وقد استحوذ على النـاس شعور عام من الكآبة والتعب ، فأرسل مازينى فى إيلول سـنة ١٨٥٤ كالئى الشجاع البطل الذى دافع عن مضائق كادورة فى سنة ١٨٤٨ لإيقاد نار الثورة فى المنطقة نفسها ، إلا أنه قبض عليـه وصلب ، فكان لهذا الحادث تأثير تثبيط فى عزائم الوطنيين ، وطلب بعض اللاجئين الذين لم يحتملوا النفى المديد العودة إلى بلادهم فسمح لهم بالعودة وأعيدت إليهم أملاكهم المحجوزة ، بيد أن هذا الخضوع كان سلبياً ظاهرياً ، إذ كان يخفى بطياته حقداً دفيناً على النمسويين أشد فعلا وأكثر شمولا من سـنة ١٨٤٠ . وتفاهمت

الجماعات القومية فى ميلانو بعد فشل ثورة ١٨٥٣ وأخذت تجد فى الاستعداد ليوم الخلاص .

وبينما كانت لمباردية تنتظر اليوم الموعود كانت الدوقيات المجاورة لها ترزح تحت إرهاق شديد ومات شارل الثالث قتيلا بطعنة خنجر فخلفته الأميرة الوصية وهـذه بدأت عهدها بالوعد بالإصلاحات ، ولـكن ما كاد يشيع الخبر الطائش بأن غار يبالدى قادم ، حتى شبت الثورة فى العاصمة بارمة . أما دوق مودينو فرانسوا فـكان فى جدال مستمر مع الحجارين فى كرارة الذين غضبوا أشـد الغضب بانسلاخ أرضهم عن حكم طوسكانة العطوف ؛ ورغم أعمال الشدة التى قام بها فرانسوا وضباطه النمسويون فقد ظلت كرارة وكر الاستياء والتذمر ، ومثلت فى الحركة دوراً خطيراً .

تلك هى حالة إيطاليه التى أراد كافور أن يحكّم أوربا فى قضيتها وقد زار الملك فـكتور عمانؤيل ملوك الحلفاء بعد سقوط سواستيبول فى أيديهم الحلفاء ، فاحتفلت انكلتره بمقدمه واعتبرته دعاية الإصلاح الجديد فى إيطالية ، وقد دل ذلك الاحتفال على أن سياسته الرشيدة كانت موضوع عطف الإنجليز ورضائهم . أما فى باريس فقد كان أثر هذه السياسة بالغاً حتى أن الامبراطور وقد أعجب بكافور تساءل ماذا يستطيع أن يعمل فى سبيل بيمونته وإيطالية ؟ ولـكن حدث أن دخلت القضية الشرقيـة فى دور غير ملائم ؛ فبيمونته كانت

تنظر إلى استمرار الحرب بعين الارتياح للحصول على أكاليل ظفر الجديدة وربط الحلفاء بتعهدات جديدة لمصلحتها ، ولكن السياسة النمسوية الماهرة استطاعت فى باريس أن تنفر فرنسه من الحرب وأن تحمل الامبراطور نابليون الثالث على أن يسلك سياسة سلمية ، وأدى ذلك إلى عقد مؤتمر باريس الذى قد ينتهى إلى إقرار السلم ، وذلك نصر باهر لسياستها ، وقد غدت النمسه فى ذلك الحين سيدة الموقف ، وأظهرت فرنسه استعدادها للسير وراءها ، فأدرك كافور مدى الخطر الذى ينتج عن استعادة النمسه منزلتها التى فقدتها أخيراً ، فبذلك تذهب التضحيات التى تكبدتها بيمونته هدراً ، وليس من علاج لذلك إلا أن يدوى صوت بلاده فى المؤتمر . وقد بذل كافور طول سنة ١٨٥٥ جهداً جباراً لمكافحة الدسائس النمسوية التى كانت تسعى لإبعاد بيمونته عن مؤتمر باريس مستغلة رغبة فرنسه وانجلتره العظيمة فى الحصول على مساعدة مسلحة من جانب النمسه . وقد أصرت أخيراً على أن يقتصر اشتراك المفاوضين البيمونتيين على القضايا التى تخص بلادهم فقط ، وأبى كافور أن تكون بيمونته فى مركز ثانوى . وما كانت الدول المعظمة لتستطيع أن تنكر وجه الحق فى مطالبه ، وعلى كل فقد ذهب إلى باريس وهو قليل الأمل فى النجاح ، وناضل هناك وما كاد المؤتمر يفتتح جلساته حتى وافق بالاجماع على أن يشترك كافور فى جميع محادثاته .

وكانت أهداف كافور المهمة أربعة :

أولا — الحصول جهد المستطاع على أراضى بيمونته ؟

ثانياً — إخراج النمسويين من الرومانى ومنح هذه الدولة استقلالا ذاتياً ؟

ثالثاً — استغلال الرأى العام الأوربى لحمل البابا وفرديناند على القيام ببعض الإصلاحات ؟

رابعاً — إظهار بيمونته فى جميع المواقف بمظهر المكافح عن إيطاليه جميعها أو الأحرى حمل الدول على اعتبار بيمونته ممثلة إيطاليه وزعيمة حركتها .

وكان يتوقف بلوغ هذه الأهداف قبل كل شىء على معاضدة فرنسه وإنجلتره لها .

وكان بالمرستون يعطف على الآمال الإيطاليه كل العطف شأنه فى كل حين ، وقد قابل الأحرار الطليان عودته للحكم فى نهاية ١٨٥٢ بحماسة شديدة وكان كرهه للنمسه وصلته بلويس نابليون ورغبته فى شمول الحكم الدستورى جميع أنحاء القارة ذلك كله أوشك أن يحفزه على إعارة قوة انجلتره المسلحة لبيمونته ، ولكنه لم يكن طليق اليد والبلاط الانجليزى كان يضع العراقيل أمام سياسته الجريئة فضلا عن أنه لم يكن وزيراً للخارجية فأنه يعلم أن بلاده لم توافق على خوض غمار حرب ضد النمسه فى سبيل حرية إيطاليه وذلك لا يمنع كون الرأى العام الانجليزى قد رفع صوته عالياً بتشويق من جمعية محبى إيطاليه فى استنكار الاستبداد الجارى فى

روما ونابولى ؛ حتى أن هدسن السفير البريطانى فى توريتو كان يستخدم نفوذه الواسع فى مصلحة الحكومة البيمونتيه ، وقد قررت الحكومة الانجليزية أن تضغط على فرديناند والبابا باذلة فى ذلك كل نفوذها .

أما عطف فرنسه على القضية الإيطالية فلم يكن أقل من عطف الانجليز وقد وضع الامبراطور منذ مدة طويلة نصب عينيه إقصاء النمسويين عن إيطالية ، ومنذ حدوث الانقلاب الحكومى الذى أصعده إلى منصة الإمبراطورية توقع حلول اليوم الذى يزحف فيه جيشه نحو بيمونته ، ولكن الحرب فى الشرق جعلت التحالف مع النمسة فى ذلك الحين أمراً لا بد منه ، بيد أنه فى إبان حروب القريم هدد النمسه وبروسية بسحب قواته وإرسالها إلى نهر الراين ونهر بو فيما إذا تخلتا عنه ، وحين كانت سياسته ترمى إلى مصادقة النمسة كان يأمل أن يقنعها بسحب قواتها من الرومانى وترك بارمه لبيمونته حتى بلغ به التفاؤل أن ظن بأنها توافق على التخلى عن ممتلكاتها الإيطالية لقاء حصولها على الإمارات الدانوبية . ثم إنه كان لا يريد أن يقوم بعمل يغضب البابا اجتنابا لخصومة الكاتوليك الافرنسيين ، إلا أنه كان يمقت فرديناند ويندد بأعماله الاستبدادية . حتى أنه ساهم فى الدسائس التى حيكت لنصب ابن عمته لوسيان مورات ملكا على نابولى .

لقد علق كافور فى مفتتح عهد المؤتمر آمالاً كبيرة على مالقيه من تشجيع الامبراطور. والمندوبين الانجليز فى المؤتمر وأمل أن يضم بارمه أو ماسة كرارة إلى بيمونته ، وأن يرى الرومانى دولة مستقلة ، وملحقة بطوسكانه أو بندقية بارمه . وحين أدرك أن تصلب النمسة العنيد سوف يقضى على مشاريعه اضطر إلى تعديل سياسته ، فقدم مذكرة إلى السفير الافرنسى والانجليزى اقترح فيها منح مقاطعتى الرومانى والمارك حكما ذاتياً تحت سيادة البابا على أن تتمتعا بنوع من التمثيل الدستورى وكان موقنا أن النمسة لا توافق على هذا المقترح فيتخذ من رفضها حجة يستغلها ضدها لمصلحة القضية الإيطالية من جهة ، وليعلن من جهة أخرى للملأ استحالة قيام حكومة البابا بأية إصلاحات ، وقد وعده السفير الانجليزى والفرنسى بأن يهيئ فرصة للبحث فى القضية الإيطالية بعدما يبت المؤتمر فى القضايا المهمة ، وكانت بروسية تقف من القضية موقف العطف ، أما روسيا فكانت تريد الانتقام من النمسه . وقبل أن ينفض المؤتمر عرض المفاوض الافرنسى عليه قضية روما ونابولى وانتقد الحال فيهما باعتدال ثم عقبه المفاوض الانجليزى بتوجيه التهم لحكومة البابا والتنديد باستبداد فرديناند طالباً تدخل العالم المتمدن ، واصر المفاوض النمسوى على رفضه الموافقة على البحث فى هذه القضية رفضاً باتاً حال دون الحصول على أى نتيجة .

ولكن كافور نال مبتغاه إذ تأكد أن أكثرية المؤتمر تعطف على القضية عطفاً صادقاً وأنه ظفر بنقمة أوربا على الاستبداد . ثم إنه لم يترك الفرصة تمر سدى بل قدم تواً مذكرة إلى السفيرين الافرنسى والانجليزى عقب ارفضاض المؤتمر أوضح فيها وضع النمسة المسيطر فى إيطالية وصعوبة الاحتفاظ بالسلم تجاه تحريكاتها ، وكانت النقطة المهمة فى تلك المذكرة كما قال مازينى لفت نظر العالم إلى أنه إذا فشلت الأساليب الدبلوماسية فى الحصول على الإصلاحات فإن الأساليب الثورية هى الكفيلة بالحصول عليها ، والواقع أن كافور أخذ يفكر فى الحرب تفكيراً جدياً بعد أن شاهد إخفاق مساعيه السياسية وراح يتهدد بالتحريض على الثورة فى نابولى وباليرمه وإشهار حرب السكاكين على النمسة فيما إذا أخفق فى الوصول إلى حل سلمى ، والواقع أنه لن يتأخر فى زج بيمونته فى الحرب فيما لو اقتنع أن الظروف ملائمة حينذاك ، وبعد أن أطلع المفاوض الانجليزى على المذكرة قال لكافور بعض كلمات اعتبر كافور خطأ أنها وعد بالمساعدة من جانب انجلتره مما جعله يتحفز لخوض غمار الحرب ولكن إنجلتره عادت إلى صداقتها التقليدية مع النمسة ولم ترغب فى تقويض دعائم تلك الصداقة ، كما أن فرنسه لم توافق على إغضاب البابا وعليه فإن المؤتمر لم يسفر عن فائدة عملية لقضية إيطالية ، فهاجمته المعارضة فى بيمونته ونددت بالنفقات الباهظة التى ذهبت سدى وتحدثت عن الآمال الخائبة ولكن الواقع أن الربح

المعنوى كان عظيما ، اعترفت به إيطاليه بأجمعها إذ حلت القضية الإيطالية من الآن فصاعدا فى المقام اللائق بها من الاهتمام والعناية . وأما النمسه فقد فقدت منزلتها بالدور المخزى الذى مثلته فى حرب القريم وبالدفاع التافه الذى قدمته للمؤتمر حول القضية الإيطالية وكان كافور محقاً حين صرح أمام المجلس النيابى ، « بأن النمسة أصبحت أمام محكمة الرأى العام » ، وأن أوربا قد اعتبرت بيمونته محامية عن القضية المذكورة ، ولما طالبت إحدى صحف تورينو بجمع إعانات لتجهيز قلعة الكسندرية بمأئة مدفع تدفقت التبرعات من جميع أنحاء إيطاليه ومن جميع الطليان فى أنحاء العالم .

الفصل الرابع والعشرون

الجمعية القومية

١٨٥٥ — ١٨٥٧

لا شك فى أن كافور نال مبتغاه فى مؤتمر باريس ، فقد كسب جانب فرنسه ؛ ومهما كان التدخل الذى أقدمت على القيام به فرنسه وإنجلتره للضغط على روما ونابولى طفيفاً فإن ذلك من صنعه ، وكان يعلم جيداً أن جيش لويس نابليون سوف يعبر جبال الألبه عاجلا أو آجلا لطرد النمسويين ، وكان الرأى العام قد قدر نجاح كافور فى المؤتمر ، وازداد نفوذه حين صار دكتاتوراً في بيمونته ، وغدت الأكثرية فى المجلس النيابى بيده ، أما مجلس الأعيان فخضع له بعد أن هدده بإحداث كراسى جديدة فيه . هكذا أصبح كافور فى جميع أنحاء إيطاليه رمز الإنقاذ العاجل وكان منهجه والحالة هذه لا يحمس النفوس لتجتمع الكلمة حوله . وحين كان المؤتمر يعقد جلساته تألف فى إيطاليه حزب جديد لتأييد سياسة كافور وتنشيطها وانتزاع القيادة المعنوية من أيدى الجمهوريين وتسليمها لحزب الأحرار الكثير العدد الذى نادى بكافور رئيساً .

وكانت ثروة ميلانو المشؤومة سنة ١٨٥٣ ضربة قاضية على

نفوذ مازنى وقد قضى على سمعة جمهورية روما . أما فى فرنسة فإن الانقلاب الذى قام به نويس نابليون أدى إلى تشتت شمل الجمهوريين وكذلك أخذ أنصار مازينى فى روما وناپولى ولمباردية يلتحقون زرافات بالقوميين الذين ساروا وراء فكتور عمانوئيل وكافور ، وكان سقوط مازينى ذا مغزى يفوق مغزى سقوط الحزب الجمهورى اذ به ينتهى الدور الذى بلغ سماكه فيما بين السنوات ١٨٤٦ — ١٨٤٩ ، وبدأ للعيان أن الحماسة التى لا تستند إلى القوة تعجز عن مقاومة حراب الجيوش الدائمة على أن القضية لم تقترب من النجاح إلا يوم عاضدتها قوى فعالة أعنى الجيش البيمونتى والسياسة البيمونتية ، أما الحماسة المحرومة من الضغط والآراء السياسية المبتسرة فقد فشلت . وكان شعار السياسة الجديدة الحصول على أكثر شىء ممكن بأقل جهد وتضحية ، وهكذا حلت نزعة كافور الحرة محل نظريات ميانى ومونتانللى وبروفيريو الاجتماعية ، وكانت حركة مازينى وجيوبرتى قد سارت مدعمة بتقديس الكنيسة . فحمل متطوعوها الصليب فوق صدورهم وكانوا يتضرعون إلى الله لنيل مقاصدهم .

أما الجيل الجديد فأخذ يهتم كثيراً بمخزن العتاد وكان للأولين شعراؤهم ومؤلفاتهم — الأدبية المهمة ، وكانوا يرجعون إلى التاريخ أما الأخيرون فصاروا يكتبون الرسالات — ويوزعون النشرات ويتكلمون بلسان الصحافة التى ارتفعت منزلتها بعد سنة ١٨٤٧

فصمت المفكران انوديعان توماسيو وباتسى وثابت النظرية العقلية Rationalisme منذ المثالية idéalisme ، وأخذت الروح الجديدة تهتم بالحال أكثر من اهتمامها بالمستقبل وتجنبت الإفراط فى آمالها وسلكت سبيل الحذر والتربص عازمة على ألا تجازف على الطريقة الدون كيخوتيه منصرفة للاستعداد لا تنزل إلى المعركة إلا بعد أن تضمن النجاح . وجعلت الحركة الجديدة كل اعتمادها على الضبط والنظام وأعرضت فى سبيل المحافظة على الوحدة عن المغامرات المفاجئة والاعتداء على الخصوم وسحق الأقلية ، وصرفت همها إلى إزالة كل ما يسبب الخلاف حتى لا يقع مثل الانشقاق بين الملكيين والجمهوريين الذى شل حركة لمبارديه صيف سنة ١٨٤٨ ، وكذلك إزالة الشكوك التى جعلت المحافظين يكادون يغتبطون بهزيمة نوفاره وقد تمشت الحركة على أن ملك بيمونته هو الزعيم الوحيد ، وأن دستور بيمونته هو الأنموذج الذى يجب أن تحاكيه دساتير إيطالية وأن جيش بيمونته هو الأداة الوحيدة للخلاص .

وكان جيوبرتى إلى حد ما رئيس دعاة هذا المذهب الجديد وكما أن كتابة بمريماتو كان قد أوجد جماعة الجلفى الجديد ، فكذلك كان كتابة (البعث المدنى) إنجيل جماعة الوحدة الجديدة ، ولما مات جيوبرتى سنة ١٨٥٢ انتقل تراثه إلى يد رجلين ممتازين : الأول (جيور جيو باللا فنجينو) من أهل لمبارديه وقد قضى هذا فى سجن شبيليبرج زهاء ١٤ سنة وعاد إلى بيمونته من جملة اللمبارديين

اللاجئين سنة ١٨٤٨ ، وكان من المؤمنين بالجمهورية بيد أن اختلاطه للملكيين واتصاله الشخصي بالملك سرعان ما جعلاه من الملكيين ومع ذلك فقد ظل راديكاليا متحمساً جم النشاط واسع الطموح إلا أنه قليل الكفاية فى السياسة ، وكان يميل إلى حمية غاريبا لدى النزيهة ولا يثق بسياسة كافور الكثيرة الحذر ، وثانيهما مانين وكان قد التجأ إلى باريس بعد سقوط البندقية واكتسب بنزاهته وإخلاصه ونبل سيرته احترام جميع اللاجئين ، وكان متخلقاً بالصفات التي يندر أن يتخلق بها رجال الدولة ، وبينما كان كافور يقنع الناس بالعقل والمنطق كان مانين يمس قلوبهم ، وكما فعله زميله باللاجينو ترك مانين الآراء الجمهورية وأدرك أن لإيطاليا قوتين أساسيتين هما — الرأى العام والجيش — البيمونتى ، ولاكتساب القوة الثانية يجب تنظيم القوة الأولى واستخدامها فى حمل فكتور عمانوئيل على أن يترأس الحركة القومية وهكذا ، فإن مانين كان يتوخى تثبيت الشعور القومى الذى يشتد ميلا نحو بيمونته ، واصبح يتتبع باهتمام تطورها الدستورى وجهادها ضد البابوية ويصفق استحساناً لها حين احتجت على حجز أملاك اللمبارديين من قبل النمسة مغتبطا بتحالفها مع الدول المعظمة على الرغم من إخفاقها فى تحقيق الآمال ، وظل يعتبر أن بيمونته هى بطل إيطاليه المجاهد التى قدر لها أن تحتضن سياسة الإنقاذ القومى ، وكان لا فارينا المؤرخ وزير صقليه السابق هو القائم بالدعاية لهذا المذهب .

وكان لافارينا رجلا نزيهاً نشيطاً مجتهداً كادحاً هادئاً يقبل على العمل بكليته ، وقد ظل ثلاث سنوات يكتب بيده كل المراسلات الخاصة بالجمعية التى مثلت المذهب الجديد ، وقد أسس أولئك الذين ذكرت أسماؤهم الجمعية القومية غير متأثرين بنفوذ رجال السياسة والصحافة ، وكان شعارهم : « الاستقلال والوحدة وطرد النمساويين والبابا معاً » ، وكانت هذه أول جمعية أسسها رجال غير ثوريين ، فكانوا على خلاف أنصار مازينى الذين كانوا يفضلون الجمهورية على إيطاليه وعلى خلاف البيمونتيين الأقحاح الذين يضحون فى إيطاليه فى سبيل تورينو ، وقد عاهدوا أنفسهم على أن يظلوا مخلصين لآل صافوية شريطة أن يعتنق الملك سياسة الوحدة ، أما إذا تردد فقدهددوه برفع علم آخر ، وقد كتب مانين للملك يقول له : « كوّن إيطاليا الموحدة ، فنحن رجالك ، وإلا فلا » ، ولما تأكدوا من من تعلق الملك بقضيتهم التفوا حوله ناشطين ، فأصبح شعارهم الوحيد « الوحدة والاستقلال ، فكتور عما نؤيل ملك إيطاليه » وكان الطليان يرغبون فى الوحدة ، ومن العدل والإنصاف أن ينالوها : ولكن خصوم الوحدة كانوا يدعون بأن الاتحاد لا الوحدة هو الذى يقود الأمة إلى الانتعاش الاقتصادى والرقى الاجتماعى الحقيق ، وبه تزول الحواجز الجمركية وتتوحد العملة والموازين والمقاييس وهو يساعد على وضع قوانين عامة ، وقد يؤدى إلى الأخذ بسياسة خارجية وعسكرية موحدة ويجعل العلاقات بين الدويلات أكثر

نشاطاً ويكون نوعاً من الوحدة الأدبية ، أما الوحدة فكانت بنظرهم عملا يتعذر تحقيقه ، أن توحيد الدول الملكية القديمة لا يتم إلا إذا بلغ أعضاء الاتحاد من القوة ما يستطيع بها أن يملى سياسته على جميع أعضاء الاتحاد ، ولو فرضنا أن بيمونته قد استولت على إيطاليه الشمالية كلها فلم يكن لها من التفوق ما يكفى للتغلب على نابولى . أضف إلى ذلك مشكلة سلطة البابا الزمنية الخاصة وكونها عقبة دون الوحدة ، وفضلا عن ذلك كله للفروق الموجودة بين الشمال والجنوب محاذيرها وأثرها ، بيد أنه فات هؤلاء الاتحاديين أن تمركز القوى بيد دولة تحكم إيطاليه جميعها والنخوة الوطنية التى تجمع كافة الطليان فى صعيد واحد ، أضف إلى ذلك اتساع نطاق العمل لدولة عظيمة تضاهى دول أوربا الغربية ، كل ذلك أمور لا شك فى أنها تتفوق على رخاء شحيح فى بلاد صغيرة .

وكان مانين مقتنعاً بأن الجمهوريين سوف ينضمون إلى معسكره الجديد . والواقع أنهم أخذوا ينشقون عن مازينى ويتخلون عن سياستهم الخاصة ويلتحقون بمعسكر مانين أفواجاً . وظل مانين يأمل بأنه يقنع مازينى بالانضمام إليه ولكن جل ما حصل عليه من مازينى هو وعده بأن يقف موقف الحياد وأن يتجنب كل ما من شأنه أن يعرقل سير العمل للاستقلال والوحدة ، على أن يترك تقدير شكل الحكومة القادمة إلى المجلس بعد أن تنال حريتها . وكان مازينى لا يثق بالملك — إلا قليلا ، ومع

ذلك فقد اقتنع الآن بأنه لا يطرد النمسويين إلا الجيش البيمونتى .

وقد خيل له بأن بيمونته لن تتحرك مالم تجبرها على ذلك حركة خارجية ؛ فإذا ما بدأت الثورة فى نابولى وفى صقلية أو فى كراره اضطر فيكتور عمانوئيل وجيشه إلى التدخل لمساعدتها ، غير أن مانين وباللافيجينو عارضا هـذا الموقف الحيادى خشية أن يتخذه أنصار الحكم الذاتى وأنصار موارت فى نابولى ودعاة الانفصال فى صقلية والقائلون بالجمهورية فى جنوه ستاراً ، ومعنى ذلك الانشقاق الذى حدث سنة ١٨٤٨ ونجاح حركة الاتحاد دون الوحدة . فضلا عن أن فكتور عمانوئيل وحكومته لن يحبذا منهجاً من شأنه أن ينحيهما عن الميدان بعد انتهاء العمل . ولكن مازينى بينما كان يميل إلى التفاهم من جهة كان يجهر من جهة أخرى بعدم ثقته بالملك وباقتناعه بأنه لا يصلح لإيطاليه إلاّ الجمهورية ، وقد اشتد الخلاف بين مانين ومازينى حتى أصبح هـذا الأخير عدواً لدوداً للجمعية القومية . وحين فتح باب الاكتتاب لشراء مدافع للكسندرية سارع مازينى إلى فتح اكتتاب لشراء عشرة آلاف بندقيه « تخصيص لأول أياله إيطاليه تثور ضد العدو المشترك » .

وشرعت الجمعية القومية بالقيام بدعاية متقنة ، ولما كان الحزب البيمونتى قوياً فى شمال إيطاليه فإنه أخذ يوطد قدمه فى الأنحاء الأخرى ، وقد استطاعت الجمعية أن تجذب إليها جميع الناس فى لمبارديه وفنيسيه وفى الدوقيات ؛ أما فى طوسكانه فظل أنصار

الحكم الذاتى من الأحرار أقوياء ؛ ولكن نفوذهم أخذ يتضاءل أمام دعاية الجمعية القومية ثم انحاز معظم أنصار مازينى إلى جانب الجمعية وشرع الشبان من أهل طوسكانه ينخرطون فى سلك جيش بيمونته وأخذ ريكاسولى يبشر بالثورة وبالوحدة . وقد رسخت الجمعية أقدامها فى الرومانى وفى روما نفسها وانحاز معظم أنصار مازينى إلى صفوفها . وكان نفوذ الجمعية فى نابولى وكلبريه وفى لاباسيلكانه عظيما بفضل مساعى الحزب البيمونتى فيها وجمعية الوحدة الإيطالية

أما فى بيمونته التى كانت مطمح الآمال ، فلم تتقدم الفكرة الجديدة فيها بادىء الأمر إلا قليلا ، وكانت الجمعية القومية قد استهدفت فى منهاجها الملكية تتعدى حدود إيطاليه الشمالية ، ولا تريد أن تختار تورينو ولا ميلانو قاعدة للحكم ، بل ترغب فى أن تجعل فلورنسه أو روما عاصمة إيطاليه المتحدة . واتخذت الجرائد ماعدا واحدة منها خطة الحذر من الجمعية وأظهرت حكومة بيمونته نفسها تردداً تجاه (المنهج العظيم الشأن) وعادت سياسة كافور ، بعد أن خفت الهياج الذى أحدثه المؤتمر ، كما كانت سياسة تقدمية حذره ، وظل هدفه فى هذه السياسة ترقب الفرص للظفر بحالفة فرنسه مهما كلف الأمر وتجنب جهده كل عمل ثورى ، قانعاً بمراقبة الأمور وسحق الجمهوريين واستغلال الحركة القومية لمصلحة الملكية وحث الآخرين على السير بالحركة إلى الأمام وعدم السير وراءهم إلا فى حالة نجاحهم . وقد رفض كافور أن يتنزل عن آرائه

فى النقاط الجوهرية التى كان على خلاف مع البابا بشأنها ، رغم رغبة الملك فى المهادنة معه ، واستعد لمساجلة طوسكانة وبارمه الخصومة وكان يميل إلى إعادة العلاقات السياسية مع النمسه إذا بادرت النمسه إلى طلب ذلك ؛ بيد أنه كان يحذر كثيراً سلوك سياسة تتعارض ومشاريع الامبراطور نابليون ثم اتجهت ميوله نحو السير إلى الإمام بخطى واسعة وأقدام إذا سمحت الظروف بذلك حتى أنه قال لفارينا فى تلك السنة : « إنه يؤمن بأن إيطالية سوف تصبح دولة موحدة عاصمتها روما » . وقد تظاهر بميله إلى الجمعية القومية لا لأنه كان يعتبرها واسطة مكافحة للآراء الجمهورية فقط ، بل لأنها احتملت تبعة السير على نهج جرىء ، وإذا استطاعت الجمعية القومية أن تكوّن فى إيطالية قوة تساعد على الاستغناء عن الامبراطور وتقود الثورة على ألا تمس العرش ، فإن ذلك هو ما يرجوه وينشده وكان يترقب الحوادث ويقول : « لا فائدة من وضع الخطط فكل شىء يتوقف على الحوادث فيما إذا كنا نستطيع أن نتهز الفرص » إذ ليس من مصلحة البلاد أن يخاطر بالحكومة أو بنفسه من أجل تقاعسه عن تقديم مساعدة للثورة فى (بنتى فيجنه) فى صقلية ، وامتنع من تشجيع الحركة الثورية فى طوسكانة وساعد على قمع الثورة فى كرّارة واتخذ جميع التدابير لمنع التبرعات لشراء البنادق ؛ بيد أن ذلك كله لم يمنعه من تشجيع رجال الطليعة سراً واستطاع بمقابلاته لفارينا فى اجتماعاته الصحفية والسرية أن يدير أكثر حركات

الجمعية القومية ، وقد اجتمع بغاريبالدى وقال له بأن يشجع أصحابه الآخرين ، كذلك شجع حركات الانفصال فى صقلية ومشروع بانيزى بإخراج سيتمبريني ورفقائه من السجن ؛ حتى أن مازينى نفسه اعترف بأن كافور إيطالى قلباً وقالباً .

على أن كافور وقف فى أوائل حركة الجمعية القومية موقف السياسى المتردد ، ولما كان باللافيجينو اخصما لفكرة الحلف الافرنسى على الضد من كافور فإنه كان لا يثق بكافور وأراد أن يسقطه من رئاسة الوزارة مؤملا أن يخلفه مانين بيد أن مانين استطاع بمحاكمته الهادئة أن يقنع باللافيجينو بأن كافور يسير وراء الجمعية القومية إذا استطاعت أن تهدى الرأى العام . وأن أحسن سياسة تقضى باكتساب كافور فى الاستيلاء عليه وحمله على الانضمام إلى معسكر أنصار الوحدة ، على أن مانين نفسه كان لا يعتمد على كافور إلى الحد الذى يضع فيه جميع ثقته ، فاعتزم أن يكسب جانب الملك ، وكانت طبيعة الملك أكثر انبساطا فى إباحة الأسرار وأشد صفاء بينما كان كافور يتجنب الانفتاح . ومع أن عطف كافور على الحركة القومية كان لا يقل حماسة عن عطف الملك ولكن هذا الأخير كان بصفته جنديا يمقت المتسويين كل المقت وينتظر بفارغ الصبر يوم المعركة والانتقام ، حتى أنه قال ذات يوم لبلافيجينو « إذا لم تبكروا بالشروع فسأبدأ أنا » .

ولم يحل وجود فيكتور عمانوئيل زعيما للحركة دون حاجتها

بطل شعبي وقد استطاع باللافيجينو أن يجد هذا البطل فى شخص غاريبا لدى ، وقد استحق غاريبا لدى هذه المنزلة بفضل شجاعته الخارقة فى مونته فيديو وروما وشمائله الكريمة النبيهة التى كونت منه رجلا دموقراطيا نبيلا أما جرأته الخارقة وتفانيه فى القيادة فقد جعلتاه معبود إيطالية وكان يكره الدسائس السياسية ويمقت ألاعيبها وكان ذا ثقافة محدودة ، قاصر الرأى فى المفاهيم السياسية . ولقد كان يتحين الفرص فتارة يحسن انتهازها وتارة تفلت منه ، وأحياناً يتمسك بها فى عناد على الرغم من أن الظروف قد تتطلب التخلى عنها وكثيراً ما كانت أساليبه مؤثرة لبساطتها ونزاهتها ، إلا أنها يعوزها التبصر واتساع الأفق ، وكان يؤثر الدكتاتورية على الحكم البرلمانى . وخلاصة القول كان غاريبا لدى عبارة عن قوة جمة النشاط لكنها غير منظمة تستطيع ببطولتها أن تسطر صحيفة خالدة فى التاريخ كما كان يمكن أن ينجم عنها ضرر بليغ ، وقد أقصى غاريبا لدى عن بيمونته سنة ١٨٤٩ ثم سمح له بالعودة بعد انقضاء أربع سنوات على نفيه فأقام فى كاربيره تلك الجزيرة الصحرية الصغيرة القريبة من ساردينه وعاش فيها عيشة مزارع ، تلك هى الحياة التى كان يتعشقها وكان وقتئذ لايزال جمهورى النزعة ، يمقت النمسويين والبابا مقتا شديدا .

ولكن جميع الظروف ومقتضيات الأحوال كانت تعمل على استجلابه إلى حظيرة الحزب الجديد ، وقد انتهى الأمر أخيراً

كأكثر الجمهوريين إلى وضع ثقته فى فيكتور عمانوئيل وفى كافور إلى حد ما ، وكان على استعداد دائم لمحاربة النمسة مع أى حليف كان حتى مع الشيطان نفسه إذا كان الشيطان خصما للنمسويين وانضم بناء على إلحاح رجال لافارينا إلى الجمعية القومية فى صيف سنة ١٨٥٦ .

وبينما كانت الجمعية القومية تعد العدد وترسم الخطط التى تضمن المستقبل كان أهل الجنوب يتشوقون إلى ظفر عاجل ، وكانت انجلتره لا تريد أن تقوم بأى عمل يساعد إيطاليه الشمالية ، بيد أنها كانت فى الوقت ذاته ملتزمة أدبياً مثل فرنسه بالضغط على روما ونابولى . وكاد الامبراطور يسحب جنوده من روما ويجبر النمسة بالقوة إذا اقتضى الحال على إخلاء الرومانى لولا خضوعه فى أغلب الأحيان لنفوذ الامبراطورة والاكليريكيين . وطالما كان ينصب نفسه مدافعاً حاراً عن الإصلاحات ، أما الوزير المفوض البريطانى (كلارندن) فكان طليق اليد لا يهاب من ناحيته الاكليريكيين ، فلذلك نراه يستعمل كلمات قاسية فى وصف الاستبداد ؛ إلا أن أنتونللى أجابه بحذق بأن الشعب الذى ولده مؤتمر باريس حال دون أى تساهل مع الأحرار وتوقع بأن يعتصم ضد اتهامات الامبراطور برسالة التبرئة التى أرسلها السفير الإفرنسى إلى الامبراطور ، ولعل انتونللى كتبها بنفسه . أما الامبراطور فلم يقتنع بتلك الرسالة بل استدعى سفيره وخاطب البابا بكلام قاس حتى أظهر أنه سيطالب بمنح الرومانى والمارك حكما ذاتياً مما اضطر انتونللى إلى أن يتظاهر

بعزمه على التساهل فطبعت لائحة قانون منقح للعقوبات إلا أنها لم تنشر أبداً ، وبت فى مصير انسحاب الحاميات النمسوية من بولونيه وانكونه ، وشرع البابا فى جولة فى أنحاء الزومانى وقد تلقى الأوامر بتنظيم مظاهرات الإخلاص إلا أن الأحرار بالاشتراك مع كافور والسفير البريطانى فى تورينو هدسن قاموا بتدابير معاكسة . وتقدمت المجالس البلدية بطلبات الإصلاحات ، ولما منعت الحكومة المجالس من عقد الاجتماعات الرسمية قدمت هذه مذكرات غير رسمية . واستقبل الناس البابا بفتور ؛ أما فى بيروزه فاستقبلوه بصرخات (الخبز والدستور) . وحين بدأ البابا يميل أخيراً إلى تلبية طلب الأهلين اعترف بمرارة بأنه ليس لديه الجرأة الكافية بالإصلاحات ، وبذلك حكم على نفسه بالعجز وقضى على آخر ما يمكن أن يعقد عليه من الآمال ، وقد اشترك أهل روما أنفسهم أيضاً بالطلبات ولكن حكومتى باريس ولندن ارتأتا أن تصرفا النظر فى الوقت الحاضر عن اتخاذ تدابير جدية .

وكانت الأمور فى نابولى أسوأ مما هى عليه فى روما ، وقد ألح والويسكى وكلارندن كثيراً على فرديناند أن يمنح العفو وأن يصلح الحكومة ، وكانا يقولان له بأن لهما الحق فى التدخل لأن وضع المملكة ينذر بالثورة ويدعو لها ويهدد السلم فى أوربا ، ولكن فرديناند رفض إجراء أى إصلاح بتعنت شديد . وكان المسجونون السياسيون على الرغم من الصرخات الاستنكارية التى تصاعدت

من أنحاء أوربا المتمدنة يعاملون دائماً فى وحشة زائدة ، وقد حبط المشروع الذى رتبه هدسن وبانيزى لإخراج المسجونين من السجن ، وقد تظاهر فرديناند فى حرب القريم بخصومته للحلفاء ورفض مساعدتهم على شراء الكبريت من صقليه ، ولما قابله ممثلا الدولتين لمباحثته فى هذه الشئون أجابهما بخشونة أنه كان يوشك أن يمنح العفو ولكنه عدل عن ذلك مؤثراً أن يظل أمر هذا العفو مطلقاً على أن ينفذه بالإكراه وقال لهما :

« إن دولته مستقلة ولا يوافق أن يمنح أى امتياز إلى حكومات تحمى الثوار » . وأخذ يستعد للحرب أملاً أن تساعده النمسه وروسيه ، ولما نصحته النمسه نفسها بأن يتساهل خفف من غلوائه وارتأى الاقتصار على نفى المسجونين السياسيين إلى جمهورية الأرجنتين ومع أن الخليفتين كانتا قد استدعتا سفيريهما فى تشرين الأول ١٨٥٦ فإنهما لم يخجلا بعد ذلك من قبول هذا الحل المخزى خشية إغضاب النمسه وروسيه وأن يؤدى ذلك إلى إعلان الحرب . والأغرب من ذلك أن فرديناند عاد فصرف النظر عن النفى فلم يتجاوز عمل الخليفتين قطع العلاقات .

وكان لوسيان مورات بن ملك نابولى السابق يواكيم مورات يقيم فى ذلك الوقت فى باريس وقد أوصى إليه ابن عمه الامبراطور بأن له بعض الحق فى المطالبة بعرش نابولى واتخذه أداة خاضعة بيده ، ووضع سالسيتى وزير فرديناند السابق بتحريض من مورات رسالة

يدعو فيهـا إلى تأييد مورات فى حقه بالجلوس على العرش فيما إذا رشح نفسه له وكانت الرسالة عبارة عن نداء لبق وجهه للأحرار تدعو إلى تقسيم إيطاليـه بين بيمونته ونابولى والتعاون على طرد النمسويين والأمراء وترك روما ولاكورماكا للبابا . وقد لعبت هذه الدعوة شطراً وافراً من النجاح وكانت البلاد بأجمعها باستثناء جمعية لازارونى تطالب بخلع فرديناند . وكان أنصار الوحدة فى مملكة نابولى ضعفاء ، وقد أحبط كافور مساعى جميع أنصار الانضمام إلى نابولى ولما كان الأحرار ضعفاء فإنهم لم يستطيعوا القيام بأى عمل جدى ، فلاح للنـاس أن فى تنصيب مورات بدلا من فرديناند ما يبشر بخلاص عاجل وكانت انجلترة وفرنسه تتشوقان لطرد آل بوربون إلا أنهما لا ترغبان فى تحبيذ أى حركة ترمى إلى الوحدة ، وقد استطاع مورات أن يكسب تأييد الـكثير من الأشراف واللاجئين من حزب الاعتدال فى باريس وتورينو ، ولا سيما بعد أن لوحت له فرنسه بمساعدتها الأدبية وكان له أنصاره الأقوياء فى نابولى ، وفى نفس صقلية كان له بعض الأنصار ، كاد كافور نفسه أيضاً ينجرف بهذا التيـار لولا أنه خشى أن يثير المشروع حسد إنجلترة ، بيد أنه لـما تأكد من أن الامبراطور يعاضد مورات لم يجرؤ على أن يظهر بمظهر المعارض له ولاح له أخيراً بأن المشروع قد ينقذ نابولى من حالتهـا البائسة وقد يؤدى إلى التحالف مع موارت ضد النمسه وقد يساعد نفوذ إنجلترة على الحاق صقليه إلى

بيمونته فإذا ما ارتقى مورات عرش نابولى أصبح من الصعب بل من المستحيل خلعه ، أضف إلى ذلك أنه فى حالة انضمام صقليه إلى بيمونته سيقف موارت موقف الخصم من بيمونته فتعاضده فى ذلك جميع العناصر التى تكره الوحدة فى شمالى إيطاليه فضلا عن مساعدة فرنسه له ، وإذا ما تولت حكومة حرة زمام الأمور فى عهد مورات فإنها تستطيع أن تستميل إلى طرفها جماعات الشعب المعارضة ، لذلك اعترض مازين على هذا المشروع وصرح بأنه إذا ارتقى مورات العرش سوف يصبح خصما لفكتور عما نؤيل بتأثير الظروف ويكون بهذا حليفاً للنمسا بالسر والعلانية ، واحتج البارزون من اللاجئين على المشروع أما المسجونون السياسيون فصرحوا بأنهم يفضلون الموت فى السجن على أن يصافحوا ذلك الأجنبى الأفاق .

أما مازينى فدبر ثورة تبدأ من نابولى وصقليه وتمتد فى جميع أنحاء الجزيرة وتجرف بتيارها فرينانذ والبابا والنمسويين معا . فقد أصبح الحزب الانفصالى فى صقلية فى خبر كان وسارت السياسة التى ترمى إلى صب الشعب فى بوتقة ايطالية واحدة . وكانت صقلية فى نظر الثوار (جزيرة البدء بالعمل ونقطة الشروع نحو الوحدة الإيطالية وكان نيكولا فابريزى تلميذ مازينى الشجاع أخذ يسعى فى مالطة ناشطاً منذ خمس سنوات لتنظيم عناصر الاستياء والاشتياق للعمل وقد تباحث مازينى وغاريبا لدى فى إعداد خطة لإرسال قوة لإثارة

الجزيرة ، ولـكن غاريبا لدى لم يوافق على الذهاب ما لم يعد كافور بالمساعدة . واستطاع لافارينا تنظيم حزب أنصار بيمونته فى الجزيرة ، وأكد بالمرستون بأنه يوافق على إنزال القوة الإنجليزية الإيطالية إلى صقلية حين عودتها من القريم ، وفى نهاية سنة ١٨٥٦ رفع البارون الفتى بنتى فيجنة العلم المثلث الألوان فى الجزيرة قرب ترمينى آملا أن تنجده إنجلتره وفرنسه ولـكن لم يلب النداء من أهل صقليه إلا قليل منهم وقد طارده رجال الحـكومة وأعدم رمياً بالرصاص ، وثمة هيئة عرفت (بلجنة النظام) لجماعة الأحرار كانت تعمل فى الجزيرة لها دعاتها وصحافتها السرية ، ولـكن الجميع كانوا يعتقدون أن الثورة فى العاصمة ، بالبرمو غير مضمونة النجاح وكان أحرار لاباساليكانه ونابولى منظمين تنظيما جيداً وقد اتخذوا للثورة الأهبة وأعدوا مئات من الرجال المسلحين ، ومما يلفت النظر أن أنصار مازينى وأنصار بيمونته كانوا يعملون متفقين واشتد صخب الناس على آل بوربون حتى أن أحد الجنود من كلبريه حاول اغتيال الملك حين استعراضه الجنود فى ٨ — كانون الأول ١٨٥٦ واستطاع الملك فرديناند بهدوئه أن يحول دون تبادل الجنود السويسريين والطليان إطلاق النيران من بنادقهم . وحدث بعد ذلك انفجارات دمرت مخزن بارود بالقرب من البلاد وسفينة حربية كانت راسية فى الميناء . وكان أخ الملك وعمه متصلين بالأحرار.

وكان مازينى رغب فى تدبير حركة ثورية فى جنوه وليفورنه ،

غير أنه قرر أخيراً أن يضل الحركة بمؤامرة دبرها أحرار نابولى ولا باسيلكانه وبعض اللاجئين النابوليين والصقليين فى جينوه ، وحاول كارلو بيساكانه أحد دوقات نابولى مع آخرين الاستيلاء على الباخرة كاجلياري وكانت تمخر بين جنوى وساردينية والسفر بها إلى بونزى بالقرب من جايته لإخراج المسجونين من السجن وإنزالهم إلى سابرى ليلتحقوا بثوار باسيلكانه ، ويعقب ذلك الزحف على نابولى ، وأنيطت بالدموقراطيين فى جنوه وقتئذ مهمة الإستيلاء على المدينة وحصونها وإرسال المدد ، ومع أن المتآمرين أنكروا أى محاولة لقلب حكومة جنوه وزعموا أنهم لايريدون سوى الحصول على السلاح والرجال مدداً للحركة ، فإن مازينى كان يعتبرها ثورة جمهورية مما حدا بعقلاء الدموقراطيين كغاريبا لدى وبرتانى إلى الإعراض عن مظاهرتها . لقد استولى بيساكانه على الباخرة كاجلياري فى ٢٥ — حزيران ١٨٨٧ وفق برنامجه ، إلا أنه بإنزاله أربعمائة سجين من المحكوم عليهم إلى سابرى قد أضر بسمعة الحركة فضلا عن أن أهل باسيلكانه ، بسبب إهماله ، لم يكونوا على أهبة للحركة حتى إن القرويين قاوموا رجاله ، وأخيراً وبعد عراك تغلب القرويون والملشيا على عصابة الصغيرة ومات بيساكانه ونصف رجاله ، أما النصف الباقى فوقع فى مخالب قضاة فرديناند وانتهت الحركة فى جنوه وليفورنه دون أن تجدى ، وبعد أن سببت خسائر على غير فائدة ، وقد عاملت حكومة بيمونته المتآمرين المقبوض

عليهم معاملة قاسية لا تقل فى قسوتها عن معاملة فرديناند للثائرين . وجاءت حركة باسيلكاته هذه آخر ضربة طعنت نفوذ مازينى ، وعاد أخلص رجاله لا يثقون بزعامة رجل كان الفشل نصيبه فى جميع الحركات ، فضلا عن أن تلك الحادثة قد قضت على مشروع مورات أيضاً وطبعت حركة الوحدة فى الجنوب بطابع جديد .

وكان من نتيجة الحركة المذكورة أن اشتد التوتر بين نابولى وبيمونته ، واستولى أسطول نابولى على الباخرة كاجليارى عرض البحر وألقى بحارتها وبينهم ميكانيكان إنجليزيان فى السجن النابولى ، وطالب سفير ملك تورينو بالباخرة وطلبت الحكومة الانجليزية إخلاء سبيل الرعايا البريطانيين ولكن فرديناند رفض أن يسلم الباخرة وبحارتها وأخذت الحادثة تهدد بنشوب الحرب فتدخلت وزارة دربى البريطانية فى الأمر وباطلاق فرديناند سبيل الانجليزيين تخلت الحكومة البريطانية عن التدخل فى الأمر ، فخنق الرأى العام فى انجلترة على حكومته لخضوعها المزرى وأكره الحكومة على طلب الغرامة والعمل مع حكومة تورينو فى الموضوع ، فخشى فرديناند سوء العاقبة وأخلى سبيل الباخرة وقدم تضمينات للميكانيكيين ، فأضافت هذه الحادثة إكليلا جديداً من النصر إلى سياسة كافور .

وبلغت سلطة كافور فى بيمونته المرتبة التى لا تعلى ، وقد تمتعت بيمونته فى العهد الذى تولى فيه كافور رئاسة الوزارة على الرغم من العجز السنوى الذى أصاب الميزانية والزيادة الخطيرة المطردة

فى القرض القومى ، رخاء لامثيل له ؛ فنمت الزراعة وراجت التجارة وعمت السكك الحديدية ، وفى عهده توفق « لانزه » وزير المعارف إلى رفع مستوى المدارس الأولية والثانوية ، وأوجب القانون الذى صدر سنة ١٨٤٨ ففتح مدرسة أولية فى كل ناحية ، فبلغ عدد المسجلين فى المدارس عشرة بالمائة من مجموع الأهالى رغم النقص البارز فى المعلمين الأكفياء ، وترك قانون لانزه المدارس الخصوصية إلا أنه أقر لوزارة المعارف بسلطات محدودة لمراقبة تلك المدارس ، وفرض المعلمين اختيار الامتحان وفتح دور المعلمين وحدد الحد الأدنى لأجور المعلمين واقترح تأسيس مدارس للصناعة ، بيد أن لانزه جابه معارضة شديدة ، فالإكليريكيون عارضوا فى فرض رقابة على المدارس الخصوصية ، ومع أن كافور وكثيراً من الأحرار كانوا يقولون بقول رجال الدين فى ضرورة إطلاق حرية التعليم إلا أن رجالا كثيرين آخرين كانوا يقولون بضرورة رقابة الدولة على التعليم وكانوا يحذرون امتداد نفوذ الاكليروس عن طريق إطلاق حرية التعليم ضاربين المثل بما كان يتمتع به الاكليريكيون فى فرنسه وبلجيكه من نفوذ باسم حرية التعليم ، واضطر كافور أن يضحى برأيه الشخصى ثم أقر المجلس القانون ، وكان تأثيره فى المدارس الثانوية مباغتاً ، ففى خلال سنوات بلغ عدد التلاميذ فيها أربعة أضعاف ما كان قبل القانون ، وأقر مجلس الأمة مشروع لامارمورا الذى يقضى بإقامة شبكة حصون بين الكسندرية وكاساله وفالانسه لإعاقة تقدم النمسويين فى حالة نشوب الحرب

ريثما ترد النجدات الإفرنسية ، وقد دشن اللمبارديون من وراء نهر نستينا زيارة الامبراطور فرنسوا جوزيف للمباردية بفتح اكتتاب لإقامة تمثال فى تورينو باسم الجيش البيمونتى مما اضطر حكومة النمسة إلى استدعاء القائم بأعمالها من تورينو إلى تبادل الكتب الشديدة اللهجة بينها وبين حكومة تورينو ، ثم إلى قطع العلاقات بينهما ولم ينجح بالمرستون فى إقناع بيمونته بإعادة العلاقات .

وأدت دعاية الجمعية القومية إلى لم شمل الأحرار فى إيطالية كلها وبذرت بذور الثورة فى جميع الدول المستبدة ، وأدى فشل الجمهوريين النهائى إلى زوال احتمال خطر الانشقاق فى صفوف الأحرار حتى أن بعض أعضاء حزب أقصى اليمين كانوا على استعداد لمعاضدة الحركة القومية ضد النمسة واستمرت بيمونته فى مساعيها للتأهب للحرب ولاح لها احتمال معاضدة فرنسه إياها فراحت تنتظر بثقة بدء المعركة بعد أن أطمأنت إلى إمكان الظفر بجيش حليف يساعدها فى الميدان ، وبعد أن تأكد لها إقبال أحسن العناصر فى إيطاليه على تأييدها ، بيد أن العناصر الرجعية قررت أن ترمى آخر ما فى جعبتها من سهام وأن تقدم بتجربة أخيرة ولاح لها أنه يمكن استرضاء إنجلترة ببعض إصلاحات تجرى فى لمبارديه والرومانى ولا سيما لأنها كانت تميل إلى النمسة وتخشى مطامع فرنسه وشجعهم على الإقدام ارتيابهم بإقدام فرنسة على مساعدة بيمونته لأن الأمبراطور كان يتحاشى الاصطدام بروما فضلا عن أن الانتقادات

التى وجهتها إليه الصحافة المتطرفة فى تورينو وجنوه قد أغاضته كثيراً ، ورأى الرجعيون أن سبيلهم للعمل هو تقوية مركزهم فى الداخل وخوض غمار انتخابات تضمن فوزاً كثرية لهم ، وهذه الانتخابات تجرى قريباً فى بيمونته فيستعدوا لها وكانت هذه الخطة محكمة التدبير فالضرائب الباهظة كانت جمة يسهل استغلالها لإثارة الناس وكانت ايالة صافوية نفسها لا تعطف على الآمال الإيطالية إلا قليلا ، وكان الأشراف ورجال الدين ذوى نفوذ كبير فيها . أضف إلى ذلك أن الأحرار فى بيمونته كانوا متفرقين يهاجم بعضهم البعض الآخر بدلا من التضامن فى مقاومة العدو المشترك . وقد تزعمت روما هذه الحركة واستعدت لها فى الخفاء استعداداً عظيما شرع بالعمل بأن دوت فى جميع الأنحاء صرخة : « الكنيسة فى خطر » وجرف التيار حتى أكثر أساقفه وطنية فآثروا الكنيسة على بلادهم وجرت الانتخابات فى تشرين الثانى سنة ١٨٥٧ ولم يبد الأحرار حتى النهاية أى تخوف ولم تأبه الحكومة للامر ولم تستخدم نفودها فى الانتخابات كالمعتاد وتقدم فى اللحظة الأخيرة مرشحون أكليريكيون فى جميع الدوائر الانتخابية ، فانتخبت صافويه وريفيرا وجنوه نفسها التى كانت إلى ذلك الحين معقل أقصى اليسار جماعة من الرجعيين ، أما فى بيمونته فقد خسر الأحرار بعض الكراسى فى الدوائر الريفية ولو لم يجمع الأحرار شملهم ويلموا شعثهم فى الساعة الأخيرة لكانت أكثرية المجلس النيابى الجديد من الاكليريكيين

ولكنهم بيقظتهم الأخيرة واتحادهم أديا إلى تغلب الأحرار على العناصر الرجعية على الرغم من كل المساعى التى بذلتها ، وكانت نتيجة المنافسة أن تلاشت جماعة اليسار وجماعة اليمين المعتدل وإن أصبح الحزبان الكبيران وحدهما وجهاً لوجه : الأحرار والرجعيون ودل فوز واحد وأربعين من الأشراف بمقاعد فى المجلس النيابى على ما بذله المحافظون من رجال المعارضة من المساعى ، وعلى أن طبقة الأشراف أخذت تشترك فى الحياة السياسية ، وبنتيجة الانتخابات صار كافور يستند إلى أكثرية متجانسة عاهدته على أن تسير وراءه حتى أن بروفيريو وفالبرتو كفا عن انتقاداتهما حين أدركا الخطر ، وطالبت الأكثرية لأسباب مختلفة باستقالة رتازى . ولما كان كافور ينقم على وزيره لنكثه بوعده فى مساعدته على التفريق بين الملك وخليلته ، فإنه استوصى مصلحة الدولة أكثر من واجب الصداقة ورجا رتازى أن يتخلى عن منصبه ففعل فى وقار وعدم اكتراث .

الفصل الخامس والعشرون

بلومبير

١٨٥٨ — ١٨٥٩

لم تكد تنته الانتخابات حتى جابه كافور أزمة غير متوقعة . وتفصيل تلك الأزمة أن وطنياً إيطالياً اسمه (أورسنى) كان مازينى يثق به ويعتمد عليه فى مشاريعه الثورية وقد أبعد عن بيمونته ووقع بيد الشرطة النمسوية فزجته فى السجن ثم استطاع أن يفر منه بأعجوبة أدهشت أوربا كلها ثم انفصل عن زعيمه مازينى فحنق المازينون عليه حنقا حمله على أن يقدم على عمل جرىء عظيم بغية اسكات الذين بالغوا فى انتقاده والتهجم عليه ، فعقد النية على اغتيال الامبراطور لويس نابليون لأنه يعتبره المستبد الذى سحق الجمهورية فى روما وباريس والذى اتخذ من نفسه أداة لمقاومة الثورة ، وكان يعتقد أن الامبراطور قد تحالف مع النمسه لسحق إيطالية واقتنع بأنه لن تنال إيطاليه حريتهـا إلا إذا انسحب الامبراطور من الميدان وفى ذات مساء من شهر كانون الثانى ١٨٥٨ بينما كان الامبراطور وزوجته الامبراطورة يستقلان المركبه نحو الأوبرا ألقيت عليهما ثلاثة قنابل فلم يصابا بأذى ، وإنمـا أصابت القنابل

مائة وخمسين رجلا من الجماهير المتحشدة بين قتيل وجريح تلك هى حادثة أورسينى .

وقد أخذت جرائد باريس عقيب الحادث تصب لعناتها على انجلتره التى حمت أورسينى وعلى بيمونته التى أصبحت مخبئاً للجناة وقاتلى الملوك وطالبت الحكومة الفرنسية لندن وتورينو بأن تحد من نشاط اللاجئين وتسكت جرائدهم وقد تأزمت الحالة حيناً وخشى الأحرار أن يؤدى الحادث إلى فقدان عطف الامبراطور على إيطالية فأصبح موقف كافور صعباً وقد حاول قبل حادثة أورسينى كثيراً تهدئة الامبراطور فطارد المتآمرين من أهل جنوه بشدة وطرد اللاجئين بالمئات إلا أنه لم يشأ أن يهين كرامة بلده بالخضوع إلى رغبات الامبراطور فأخذ البعض من أنصار كافور المتحمسين من زملائه يتذمرون ، وأبت عليه عزة نفسه وكرامة وطنه أن يذعن ، فلما أرسل الامبراطور كتاباً بخط يده يتوعد فيكتور عما نؤيل أجابه الملك عملا بنصيحة كافور بأنه لا يرضى قط بالضغط عليه ، واقتصرت التدابير التى اتخذها كافور على تعديل قانون المطبوعات بحيث صار يخول الحكومة معاقبة من يكتب محبذاً المؤامرة ضد الملوك الأجانب بناء على طلب الحكومة ذات الشأن ، وعلى الرغم من أن لائحة القانون كانت معتدلة فإن أعضاء اليسار لم يتحمسوا إليها ولكن رتازى أيدها فأقرها المجلس بأكثرية ساحقة .

وما كاد الذعر فى باريس يزول حتى أخذ الامبراطور يعطف على القضية الإيطالية أكثر من قبل كأن حادثة أورسينى دفعته إلى ذلك بدلا من أن تزيد فى غضبه ، ذلك لأنه رغب فى استمالة جانب بيمونته فى حالة وقوع حرب مع إنجلتره كما وإن أورسينى قبل إعدامه أرسل إلى الامبراطور كتابين ناشده فيهما بالدم الإيطالى الذى يجرى فى عروق الامبراطور وأنذره بأن السلم فى أوربا لن يستقر وأن عرشه لن يتوطد مالم تبلغ إيطالية أمانيها القومية وكتب له يقول : « انقذوا إيطاليه تنالوا تقديس خمسة وعشرين مليوناً إيطالياً » وكان لهذه الاستغاثة تأثير عميق فى نفس الامبراطور ، وبعد أن نحى بولونية التى كان يعطف قبلا على آمالها رغبة من التقرب من روسية ، اشتدت حماسته فى تنفيذ الرغبة التى طالما تاقت نفسه إليها لإنقاذ إيطالية وهنغارية . وكان كافور قد جلب رضاء الامبراطور بالوقوف إلى جانبه فى خصومته ضد إنجلتره والنمسة فى مسائل ثانوية أثارتها معاهدة باريس ، وكان الأمير جيروم نابليون بن عم الامبراطور الذى يدير جماعة الأحرار وأعداء الاكليريكيين فى بلاط الأمبراطور قد بذل كل نفوذه فى وضع أساس حلف إفرنسى — إيطالى .

ودعا الامبراطور كافور فى ٢٠ — تموز إلى لقاء فى قصر بلومبير خلسة بغية عقد ميثاق نهائى لإنقاذ إيطالية وأسفر الاجتماع عن توفيق لكافور إذ وعده الامبراطور بأن يهاجم فى الوقت

المناسب وأنه سيجهز لذلك مائتى ألف جندى على أن تجهز بيمونته نصف هذا العدد ، وكان الامبراطور قد توقع حياد روسية وانجلتره فى نزاع ينشب بين فرنسه والنمسة ووعد أن يطلب إلى النمسه بأن تتخلى عن جميع ممتلكاتها فى إيطاليه ، ولم يشأ الامبراطور أن يمس أراضى البابا بيد أن كافور ألح على ذلك فتم التفاهم بينهما حول ضم أراضى الرسالة إلى بيمونته بالإضافة إلى لمباردية وفنيسة والدوقيتين ، ومن المحتمل ضم المارك أيضاً وبذلك تتأسس فى شمال إيطاليه دولة ملكية يبلغ نفوسها أحد عشر مليوناً ، أما طوسكانة وأومبرية فتؤلفان دولة ملكية فى وسط إيطاليه قد تملكها الأميرة الوصية فى بارمه ، أما البابا فيحتفظ بروما والكمركه بحماية حامية افرنسة ويترك فرديناند لرحمة رعيته ، وكان الامبراطور يفضل بأن يرفض مورات عرش نابولى بعد الثورة التى لا بد من نشوبها فى نابولى ثم تؤلف هذه الدول الأربع الاتحاد الإيطالى ، ثم جرى البحث حول مغنم الامبراطور من هذه المساعدة واشترط الامبراطور ما يلى :

أولا — لا تستغل الحرب لتشجيع فكرة الثورة بل يجب أن تستند الثورة الإيطالية أو الحرب إلى أسباب سياسية تسوغها وتدل على مشروعيتها فى بلاده وفى إنجلتره ، فتقرر اتخاذ وطنية مقاطعة « ماسا كراره » ، التى كانت فى حالة عصيان مستمر ضد دوق مودينة حجة يسهل التذرع بها .

ثانياً — أن يتزوج الأميرة كلوتيلده بنت ابنة فكتور عماونيل من الامير نابليون ، وأخيراً وهنا الثمن الحقيق التخلى عن أيالة صافويه ونيس لفرنسه ، ثم لوح باستعداده لتأجيل البحث حول نيس ولكن أصر على أخذ صافويه لتمتد حدود فرنسه إلى جبال الألبه ، وبذلك تنال فرنسه على الأقل حدودها الطبيعية فى الجنوبى الشرق ولا سيما لأنه يطمع أن تساعده هذه الحدود فى المستقبل على توسيع أرض فرنسه إلى ضفاف الرين .

وظل الموقف رغم النجاح الذى ناله كافور فى بلومبير صعباً والغاية بعيدة المنال ، ولقد أظهر كافور جرأة فائقة فى زج بلاده فى مأزق لا يمكن الرجوع عنه وأخذت بيمونته تتقدم نحو الحرب فى سرعة وعزم ، وما هى إلا أشهر قليلة حتى صار لا بد لبيمونته من أن تخوض غمار حرب فاصلة ، هى حرب حياة أو ممات للمحافظة على شرفها وسمعتها . وإذا لم تقم فرنسه بمساعدتها فلا بد من أن تسحقها جيوش النمسه وما لم تحارب القطعات الإفرنسية فى جانبها فإن الشجاعة البيمونية وحدها لن تخلصها من مخالب جارتها الجبارة على أن المساعدة الإفرنسية لما تضمن ، ولا شك فى أن الامبراطور كان صادقاً فى وعده لكن الصعوبات التى يلاقيها فى تمهيد المجال كانت عظيمة ، وحسبنا أن نذكر قدرة الحزب الاكاريكى على حشد قواه للحيلولة دون حرب تؤدى حتماً إلى الهجوم على سلطة البابا الزمنية ، وكان الامبراطور لا يجرؤ على

إغضاب هذا الحزب ، ثم إن رجال المال فى باريس كانوا يخشون الحرب وتأثيرها فى السوق ، ولم ينظر الأحرار بعين الرضا إلى سياسة من شأنها أن تقوى سمعة الامبراطورية ، وأن تزيد من نفوذ الامبراطورية بحيث تقضى على الاستياء فى الداخل ، وكان وزراء نابليون يجهلون نبأ اجتماع بلومبير جهلا تاماً ، ولما أطلعوا عليه لم يكتموا الملك معارضتهم إياه ، هذه بعض العقبات فى الداخل ، أما فى الخارج فكانت أشد منها فى الداخل ، وكان تذليلها أصعب منالا ، فمنها أن الإمبراطور كان يعلم أن إنجلتره سوف تبذل كل جهدها للمحافظة على السلم مع أن الوزارة البروسية وقتئذ كانت حذرة من فينا ، إلا أن الرأى العام الجرمانى الذى يعطف على فكرة الاتحاد الجرمانى كان يعتبر لمبارديه وفنيسيه من أراضى الإتحاد المنشوى وأن (فيرونه ومانتويه) من المواضع الامامية للوطن الجرمانى ، فهو والحالة هذه قد يضغط على حكومة برلين ليحملها على محالفة النمسه ، ثم أنه رغم صداقة فرنسه لروسية كبيرة ورغم أن بروسيه تغتبط لضياع لمبارديه من النمسة فإنه كان من المشكوك فيه جداً بأن تقدم روسيه المستبده مساعدتها أو عطفها المثمر فى حرب تستهدف فوز القضية الوطنية ، ولم تكن العقبات التى تعترض كافور فى سبيل خلق الفرصة أقل شأنا من تلك التى يلاقيها الامبراطور ، وقد عزم كافور أولا : على أن يجبر النمسه إلى الحرب بإغضابها ، ولما لم يوفق إلى ذلك أخذ يترقب سنوح

فرصة قد تنجم عن تطورات القضية الشرقية أو عن تمرد يحدث فى كراره ، وظل متردداً فى قضية دولة آل لورين فى طوسكانه ، هل يدبر الدسائس ضدهم بغية إلحاق طوسكانه ببيمونته فى الوقت المناسب ؛ أم عليه أن يصرف النظر عن ذلك لأن الدول الكبرى قد لا توافق على ذلك ، ثم إنه كان فى الوقت نفسه ينظر بعين القلق إلى رغبة الامبراطور لويس نابليون فى تأسيس ملكية إيطالية الوسطى ، ونصب أمير افرنسى على عرشها ، ولذلك فإن استبقاء آل لورين فى عرشهم ضمان ضد تنفيذ رغبة الامبراطور وعليه تلقى مندوبه فى فلورنسه تعليمات تقضى عليه بأن يبذل جهده فى استمالة أمير طوسكانة إلى جانب الأحرار .

وبعد أن وثق كافور من معاضدة الامبراطور إياه وجه اهتمامه لحل المشاكل الداخلية ، التى لا تقل خطورة عن المشاكل الخارجية . إنه لم يكن يخشى شيئاً من جانب بيمونته ، وكان يعلم بأنها سوف تلبى نداء الملك وتقاوم العدو مهما كانت قوته . ولما عرض لائحة قرض جديد بأربعين مليوناً من الليرات وافق المجلس عليها بأكثرية ساحقة واقترح حزب اليسار بزعامة رتازى ضد اللائحة المذكورة ولكن كافور اطلع رتازى على محادثات بلومبير فوعده بالمساعدة ، ثم دلت موافقة مجلس الأعيان على اللائحة على انحياز المحافظين الشيوخ إلى جانب القضية القومية ولكن جهود بيمونته وحدها لا تكفى لظفر القضية الإيطالية ، وإنما الواجب كان يقضى عليه بأن يمهد فى

إيطاليه توافق تام فى الآراء تتحطم أمامه كل معارضة سياسية ويكون من القوة بحيث تظفر فرنسه إلى الأخذ بيده وتشجع على ألا تقبل من حليفتها إلا مغنما شريفاً ، وكانت الجمعية القومية قد سعت كثيراً إلى تنظيم هذا الاتفاق فى الآراء ، وأخذ كافور يسعى من جانبه لإكمال العمل الذى بدأت فيه الجمعية ، وكانت سياسته فى جر النمسه إلى الحرب تستند فى مجموعها إلى التذرع بالحجة القائلة بأن لمبارديه وفنسية تكابدان اضطهاداً لا يطاق ، وأما إذا لم يستطع التذرع بهذه الحجة فإن الحرب تفقد سببها الأصلى ، ولم يكن للنمسه حليف سوى إنجلتره ، أما فرنسه وروسية فأخذتا تضمران لها الخصومة أكثر من قبل ، وأما بروسيه فكانت تترقب بفارغ الصبر الفرصة التى تمكنها من استلام صولجان الزعامة فى ألمانيه فما على النمسه إذن سوى أن تظهر أمام العالم المتمدن بمظهر غير المستبد ولا سيما بعد أن اتهمها مؤتمر باريس بالاستبداد فرفعت الحجز عن الأملاك فى نهاية ١٨٥٦ . ونصبت الارشيدوق مكسمليان أخا الامبراطور الصغير حاكما عاما على لمبارديه وفنيسيه لتهدئة الحال وإزالة الاستياء فيهما ، وكانت آراء مكسميليان السياسية مشبعة بالتسامح ولو خير فى الأمر لاختار إعطاء الدوقيتين إلى بيمونته وانقاذ الرومانى من الاضطهاد بضمها إلى الأمبراطورية وتأليف اتحاد إيطالى بزعامة البابا ، ولكان منح لمبارديه وفنيسيه حكما ذاتياً واسع النطاق ومؤسسات تمثيلية وجيشاً إيطالياً ، وكانت

شمائله الشعبية واسرافه فى الإنفاق واعتماده على استشارته رجال البلد دائماً ورغبته الصادقة فى مداوة أمراض الإيالتين والنشاط الذى بذله فى هذا السبيل ، ذلك كله جعل المعارضة تلقى سلاحها . والتف حوله بعض الإشراف المحافظين وبقايا الحزب المعارض لبيمونته ؛ ذلك الحزب الذى أخلى الميدان بسرعة ، وتخوف الأحرار وكافور من عواقب هذه السياسة التى يسلكها ماكسميليان وأن تؤدى إلى إقبال لمبارديه على التفاهم مع الأجنبى ، ولم تكن مخاوفه فى محلها لأن أهل لمبارديه وفنيسيه كابدوا من سوء الحكم القاسى منذ عشر سنوات ما يجعل التفاهم مستحيلا وما جعل وداعة الميلانيين تنقلب إلى شراسة شديدة . وقد صم الأحرار آذانهم عن سماع وعود مكسيميليان الخلابة ، ولما رفضت الحكومة المركزية فى النمسه مقترحات مكسيميليان انهار آخر أمل فى التفاهم . وكان الحزب العسكرى ما يزال مسيطراً على الأمور فى فينا ، وحدثت حادثتان جنونيتان قضتا على مساعى الارشيدوق : أولاهما تخفيض قيمة العملة بتوحيدها فى جميع أنحاء الامبراطورية ، وثانيها توسيع نطاق التجنيد بمنع المكلفين بالخدمة العسكرية من الزواج قبل الثالثة والعشرين من العمر ؛ الأمر الذى أحدث تأثيراً شيئاً فى نفوس الناس وبث روح النفره فى نفوس القرويين .

وغدا كافور طليق اليد فى تنفيذ خططه المتعلقة بباقى إيطالية وتجنيد جميع عناصر الأمة وكفاياتها لاستخدامها فى المعركة القادمة

وكان انصاره المخلصون الذين يغتبطون بتأسيس مملكة قوية فى شمال إيطالية هم الأكثرية فى بيمونته ولمبارديه وفنيسيه والدوقيات . ثم إن دعاة الوحدة الذين يؤلفون الجمعية القومية كانوا يزدادون يوما فيوما ، أما أنصار الحكم الذاتى ولا سيما فى طوسكانه ونابولى وهم القائمون باستغلال الدول الصغيرة والذين ينفرون من روح بيمونته العسكرية المحافظة فكانوا مشتتين هنا وهناك . وأما الجمهوريون فقد أخذ عددهم يتضاءل ولكن صفوفهم لم تكن تخلو من العناصر ذات الرجولة القومية والحيوية . ولكى يستميل كافور أنصار الحكم الذاتى إليه اجتنب كل سياسة رسمية تستهدف ضم إيطالية الوسطى والجنوبية إلى بيمونته ، وسعى إلى استمالة الأمراء إلى القضية القومية بالقضاء على الشكوك التى ولدتها الحركة الألبرتيه سنة ١٨٤٨ . وبموت مانين فى خريف سنة ١٨٥٧ أصبحت الجمعية القومية تحت سيطرة باللافيجيو وسكرتيره الغيور لا فارينا ، مع أنها لم تكن أداة بيد كافور ، إلا أنها كانت تلبى أوامره فى الأزمات ، ولما كان موضوع الوحدة دون الاستقلال هو مثار الخلاف فإن شعار الاستقلال حل محل الوحدة الإيطالية ، وصدرت الأوامر بإيقاف أى جدل سياسى فى نهاية الحرب الاستقلالية ، وكانت الجمعية القومية قوية النفوذ فى الايالات التسوية وفى الدوقيات وبلغت الحماسة الوطنية والوعى القومى فى لمبارديه حداً عظيماً ، حتى أصبح العمل للحيلولة دون الانفجار من مشاغل

الجمعية الصعبة . أما فى الرومانى فاتحدت التشكيلات القومية المختلفة بانضمام بعضها إلى البعض الآخر وأنبثت لجانها فى جميع أنحاء الأيالة . أما فى صقلية فكان تفوق الجمعية على الجمهوريين مستمراً بيد أنها لم تستطع أن تقوم باستعدادات فعلية فى نابولى .

واستخدم كافور الجمعية القومية فى جمع المتطوعين من جميع أطراف إيطاليه ، وهو لم يكن يعلق كبير أهمية على استخدام هؤلاء من الوجهة العسكرية ؛ إنما كان يدرك خطورة إرسال أكبر عدد ممكن من هؤلاء إلى ساحة الوغى . وأثر ذلك فى منع الامبراطور من الحصول على جميع أكاليل الانتصار ولإعطاء بيمونتة أقوى صوت فعال فى التنظيم الذى يلى الانتصار . فضلا عن أن حركة التطوع قد تدفع النمسه إلى إعلان الحرب . وسار كافور على خطته فى إحداث الشغب فى ماسّة كراره لخلق ذريعة الحرب ، وقد أقر مشروع لا فارينا فى إعداد الثورة بإرسال غاريبالدى مع المتطوعين لمساعدة الثورة موقتاً بأن الحركة المذكورة سوف تضطر النمسه إلى اتخاذ تدابير حاسمة . فأستدعى غاريبالدى إلى تورينو وكان يثق وقتئذ بكافور والملك ثقة عمياء ، وعهد إليه بالأمر فقبل المهمة التى أنيطت به فى شوق ولهفة ورجع مغتبطاً بقرب نشوب المعركة .

وعلى الرغم من ذلك كان الكثير من الأحرار لايزالون مترددين . ويرجح سبب ذلك إلى تقصير كافور فى مساعيه السرية ،

ومع أن المقربين إليه كانوا يعلمون بأن الحرب سوف تنشب فى الربيع القادم إلا أن كافور لم يستطع إقناع الجماهير بنياته ، وكانت لمباردیه تترقب الحرب بفارغ الصبر . وفى المراسم التى جرت فى أوائل سنة ١٨٥٠ فاجأ الامبراطور السفير النمسوى بقوله بأنه يأسف ؛ « لأن العلاقات بين الامبراطوريتين لم تكن حسنة كما يجب أن تكون » وكان من تأثير هذا القول أن اشتد التوتر بين فرنسه والنمسه وعدته أوربا نذيراً بالحرب ، ومع أن كافور فزع لهذا التصرف المبتسر إلا أنه علم بأن مصير بيمونتة أصبح فى الميزان فما عليها إلا أن تستغل ذلك التصريح الجرىء بمناسبة افتتاح المجلس النيابى فى ٧ كانون الثانى كتب كافور خطاب العرش وأشار فيه « إلى أن السنة الجديدة ليست صاحية ، تمام الصحو » ولما اعترض زملاؤه على هذا القول واعتبروه شديد اللهجة ، استشار الامبراطور فصححه بما هو أشد لهجة إذ أضاف إليه العبارة التالية بدلا من عبارة كافور : « ولا يسع الملك إلا أن يصغى إلى صرخات الاستغاثة الموجهة إليه من أكثر أبناء ايطاليه » . ودلت الحماسة البالغة التى تجلت فى المجلس وأروقته حين تلاوة ذلك الخطاب على أن تلك الكلمات الجريئة قد أصابت المرمى .

وهكذا اتضح للعالم أجمع بأن الامبراطور عازم على الحرب فى القريب ، وكان جواب النمسه على الخطاب أنها أرسلت فيلقا إلى لمباردیه ورغم أن الامبراطور كان يميل إلى تأجيل المخاصمات

إلى أن تتم استعدادات جيشه وتصبح النمسه منعزلة تماماً ، فإنه لم يبدأ من أن يأمر سراً قواته المرابطة فى ليون بأن تستعد لاجتياز الألب وسافر الأمير نابليون إلى تورينو لطلب يد الأميرة كلوتيلده وحين وصول هذا الأمير إلى تورينو عقد الحلف المجوى بين فرنسه وبيمونته فى ١٨ — كانون الثانى ، وقضت معاهدة التحالف على أن تنظم فى حالة الانتصار ايالتا لمبارديه وفنيسيه والدوقيات والرومانى . وإذا أمكن المارك أيضاً إلى بيمونته وتضم فرنسه إلى أملاكها لقاء ذلك إيالة صافويه . أما مدينة نيسى فينظر فى أمرها فيما بعد . ونصت الاتفاقية العسكرية التى عقدت فى الوقت نفسه على أن تبدأ الحرب بين منتصف نيسان ونهاية تموز وأن تقدم فرنسه مائتى ألف جندى .

وباغت الامبراطور وزراءه فى أوائل شباط بعزمه على إصدار بيان بشأن القضية الإيطالية ، ثم صدر البيان فى صورة رسالة بعنوان « نابليون الثالث وإيطاليه » أوضح فيها الامبراطور آراءه فى القضية الإيطالية ، أما النقاط الواردة فيه فتدور حول تطمين الشعور القومى الإيطالى ونشل البابا من موقفه الحالى بتنفيذ خطة الاتحاد الإيطالى ، وأشارت الرسالة إلى أن الوحدة الإيطالية غير ممكنة وأن نابولى وطوسكانه يجب أن تحتفظا بعرشيهما وأن تقسم إيطاليه إلى ثلاثة أقسام تقسيما يتم على حساب النمسه والبابا ، ويقول البيان بأن روما يجب أن تصبح عاصمة الاتحاد على أن تترك المدينة

للبابا مع إعادة إصلاح الحكومة ويكون لها جيش تجنده البلاد ، ومن ثم تنسحب الحامية الأفرنسية ، وأظهرت الرسالة بأن النمسة المانع الأصلى للاصلاحات فى روما وأنها ضد كل مشروع اتحادى ونوهت بأن فرنسه إذا ما وقعت الحرب ستحارب فى سبيل روما « أم الأمم » .

وكان نبأ حديث الامبراطور للسفير النمسوى وخطاب العرش قد أضرم النار فى إيطاليه ، فاشتدت الحماسة فى نفوس أهلها وتضاعف نشاط جميع الوطنيين وانهارت جميع الشكوك التى كانت تساور النفوس فى إخلاص كافور وترتاب فى أى حلف أجنبى لا يثق بمساعدة الامبراطور ، وأدرك الناس أن خطاب الملك قيد الملك فى خوض غمار حرب قريبة الوقوع ، وكان من قوة تأثيره أن انحاز بقية الجمهوريين إلى جانب الحكومة البيمونتية ، ومع أن الجمعية القومية كانت قد أمالت قسما كبيراً من الجمهوريين إلى جانبها ، فإن فئة قوية من الجمهوريين كانت لا تزال فى جنوه تتردد بين غاريبالدى ومازينى ، فعزم مديجى ونينومديكسو وبرتانى — وسيلعب هؤلاء الثلاثة دوراً خطيراً فى المعركة القادمة — على مساعدة حكومة بيمونته مساعدة فعالة ، أما مدينة جنوه التى كانت لا تزال منقسمة بين الاكليريكين والجمهوريين الذين عارضوا سياسة كافور ، فقد انتهى بها الأمر إلى تأييد كافور والملك ؛ أما

مازينى فرفض بأن يؤيد سياسة التحالف مع فرنسه أو أية سياسة لا تستهدف الوحدة وظل فى عزلته .

ودلت حماسة المتطوعين على قوة الشعور القومى الكامن فى النفوس ، وقد تفاهم كافور مع غاريبا لدى على تنظيم قوة من المتطوعين إلا أن السنة مضت دون الحصول على نتيجة مجدية . وبدأت حركة التطوع بهروب المجندين اللمبارديين فى شهر شباط ، وكان لقانون التجنيد الجديد الذى استغلته الجمعية القوميه تأثير نافذ فى هذا الهروب وعلى الرغم من جميع التدابير التى اتخذتها السلطات النمسوية فإنها لم تستطع أن تحول دونه . أما حكومة بيمونته فرحبت بالهاربين ودلت بذلك على أنها مقدمة على الحرب ، وامتدت حركة التطوع إلى الدول الأخرى وأصبح الذهاب إلى بيمونتة محك الوطنية وأخذ الفتيان مع جميع أنحاء ايطالية .. يجتازون حدود بيمونته بالمئات ، وكانت الحكومات الإيطالية ترى ذلك ثم لا تنبس ببنت شفه ، وكان هؤلاء المتطوعون يهرعون للتطوع آتين من مودينه وبارمه وطوسكانه والرومانى وارميريه والمارك ، حتى أن كتيبة من كتائب البابا هربت بأجمعها ، وكادت مناجم الحجارة فى كراره تخلو من العمال ، وكان المتطوعون فى صقليه ونابولى يفرون بقوارب الصيد ، وقد بلغ عدد المتطوعين الذين انضموا إلى الجيش النظامى أو كتائب غاريبالدى قبل نشوب الحرب بين ٢٠ و ٢٥ ألف متطوع . وقابل غاريبالدى الملك وأباح له أن يختار ضباطه

وأصبح نشيد غاريبالدى الذى وضعه (لويجى موكانتى) نشيد المارسلير فى إيطالية . وسعى القوميون المعتدلون وقتئذ لحمل الدوق الكبير على الانحياز إلى جانب القضية الوطنية ، وكان الهدوء قد خيم على طوسكانه منذ ألغوا الدستور سنة ١٨٥٢ ، ومن سنة ١٨٥٥ أخلت بقية القوة النمسوية البلاد ولم تكن الحكومة على درجة من السوء بحيث يعم الاستياء فى البلد وينجم عنه ثورة أو اضطراب ، ولم يستطع الأحرار الذين فقدوا الثقة فى أنفسهم أن يكتسبوا ثقة الجماهير ، على أن الناس أخذوا تدريجا ينشدون حياة حرة أكثر من قبل ، ولا سيما بعد أن توغلت الجمعية القومية فى البلاد وأسست فيها حزبا شعبياً قوياً يدعو لبيمونته ويغتبط بمشاهدة فيكتور عمانوئيل ملكا على البلاد .

أما الأشراف الأحرار من أنصار الحكم الذاتى ، فكانوا يرون أن الحيلولة دون الثورة تقضى بإقناع الدوق الكبير بالسير شوطاً فى ميدان القومية الحرة . ومن بين هؤلاء ريكاسولى ، ولم يكن يثق بآل بوربون ويعلم عن خبره بأنه من العبث أن يتوقع المرء إصلاحات من أمراء طوسكانه . وكان يعتقد باستحالة بعث ايطالية إلا بطرد النمسويين ، وعليه ينبغى أن توضع الثقة فى بيمونته . وإذ اقتضى الأمر فعلى بيمونته أن تقود حرب ثورة شاملة فى سبيل استقلال البلاد . ومع أن ريكاسولى باتفاق مع الأشراف الآخرين رفض العمل بنصيحة كافور للمطالبة بالدستور خشية إثارة الحزازات

الهامدة بين القوميين فإنه وافق على أن يسعى لإنقاذ الدوق الكبير باشتراكه فى الحرب ، وكان البيان الذى صدر فى ١٥ — آذار بعنوان (طوسكانه والنمسة) ، الذى تحمل ريكاسولى وأشراف مهمون آخرون تبعة نشره يتضمن نقداً لاذعا ومعقولا ضد النفوذ النمسوى فى طوسكانه ، وجاء فى البيان المذكور ما يلى :

« لقد انتظرنا عشرة سنوات حتى تكمل بيمونته مهمتها وتظهر للعالم بأن الإيطاليين يستحقون الحرية ، أما الآن فينبغى لطوسكانه أن تقف بجانب بيمونته » ، وكان كافور قبل شهر قد استطاع بواسطة الجمعية القومية إيجاد حركة سياسية فى فلورنسة تدعو إلى عقد حلف عسكرى مع تورينو وعرض مندوب كافور على ريكاسولى باسم بيمونتة حماية عرش الدوق الكبير إذا نضم هذا بصورة رسمية إلى بيمونته ووافق على إناطة حكومة طوسكانه بعهدة ريكاسولى فى الحرب التى سوف تنشب .

وبينما كان الطوسكانيون ينضمون إلى الأحرار كان الهياج فى الشمال يخف نوعا ما بيدأن رائحة البارود فى بيمونته أخذت تؤثر فى نفوس أشد الناس كرهاً للحرب ، واستمر جدل خفى بين حزب بيمونته القديم وبين أنصار الوحدة فى الجمعية القومية . وكان كل من هؤلاء يشك فيما إذا كانت صافويه تصبح فريسة تضحى بها بيمونته ، وكانت أجوبة كافور فى المجلس النيابى فى هذا الشأن لا تشفى غليلا . وأخذ البعض من أعضاء الوزارة

نفسها يفكرون قلقين فى الخطر العظيم الذى قد ينجم عن المعركة القادمة ، ولكن الأكثرية أيدت بسرور سياسة الحرب ؛ لأنها هى وحدها الكفيلة ببلوغ القسم الأول من الآمال . وقد وافقت راضية على أن يتولى كافور تنفيذ تلك السياسة .

وإذا استثنينا رجال صافويه السياسيين ؛ فإن الجميع قد اتفقوا بصورة عامة على ترك الحزازات الحزبية . وقد عبر غاريبالدى عن الشعور العام بالعبارة التالية : (الكل يرغب فى وجود دكتاتور للحركة ؛ فلتزل الاحزاب وليكن كافور الكل فى الكل) هكذا نرى أن الأحرار قد فازوا فى الداخل فوزاً عظيما ، ولكن الصعوبات الخارجية كانت ما تزال ماثلة فالناس كانوا يظنون أن الحلف الافرنسى قد تم فى كانون الثانى ، وها هم الآن فى شهر أذار ولم تنجل آثاره ، من أجل ذلك أخذ الشك يخامر النفوس فى عزم الامبراطور على الوفاء بوعوده ، والواقع أن الامبراطور بعد أن هدأت أعصابه أخذ يتأمل فى الأخطار التى قد تنجم عن خططه الجريئة ، وعاد إلى تردده المعتاد وشغفه بالتسويف ولا سيما لأن سياسة الحرب أهاجت جماعة من المعارضين له وأصبح محتملا أن يناوؤه ، وأخذ الوزراء يقولون له الحرب تضر بالامبراطورية حتى أن المجلس النيابى أعرب فى شباط عن مخاوفه من تلك السياسة وأيقن الامبراطور أن فى مصير الحرب حياته ومماته ؛ ولذلك فإنه لم يطمئن إلى أن مصير الحرب سيكون نصراً له . وقبل أن يستعد

جيشه استعداداً تاماً ، ولم تكن القوانين الدولية تسيغ مهاجمة النمسة بحجة الدفاع عن المبادىء القومية ، فقد يؤدى ذلك إلى ظفر خصمه بمساعدة أوربا الأدبية وربما المادية أيضاً ، فلم يكن له مندوحة عن السعى لعقد حلف مع روسيه يضمن له حياداً ودياً ، ويحمل روسيه على حشد جيش على حدود غاليسية لتضطر النمسة إلى تقسيم قواتها ويهدد بروسيه فيما إذا أرادت أن تساعد النمسة ، وكان الامبراطور يشترك مع اللاجئين الهنغاريين فى حبك الدسائس باستمرار . ومما يجدر ذكره هنا أن لفرنسه فى بلاد الجبل الأسود حينذاك نفوذ قوى بحيث يمكن أن تصبح قاعدة لإثارة السلاف على النمسويين .

ومع ذلك فإن الموانع كانت لا تزال عظيمة إذا ساعدت بوروسية النمسه ، وإذا ظهرت إنجلتره بمظهر المنتظر ، الأمر الذى قد يؤدى إلى الخصومة ، وكانت الوزارة الجديدة البروسية تعارض فى عقد أى حلف مع النمسة . وجاء فى نشرة صدرت فى برلين وقتئذ وتعزى إلى بسمارك ما يدل على عطف البروسيين على إيطالية بيد أن بلاطات الدول الألمانية كانت خاضعة للنمسة وترغب كثيراً فى اجبار الديت (مجلس الاتحاد) على أن يتعصب للنمسة فى النزاع باعتبار أن القضية تخص ألمانيه بأجمعها ، ولا ننكر هنا أن الرأى العام فى المانيه كان ساخطاً على الصحافة الافرنسية وتهجمها المستمر ، ومع ذلك لو استطاع نابليون أن يضمن عطف انجلتره

لاضطرت الوزرة البروسية إلى البقاء على الحياد ولكن وزارة دربى لم تشاطر الشعب البريطانى عطفه على إيطاليه إلا قليلا . وكانت تهدد كل من يخل بالسلم ، وكان مالسبورى وزير خارجية إنجلتره يجهل السياسية الإيطالية كل الجهل . ولا يكترث مطلقاً للآمال القومية الإيطالية ، لذلك أخذ يسعى لإصلاح البين بين فرنسه والنمسة وكانت سياسته ترمى إلى إزالة جميع الحجج التى تسوغ نشوب الحرب ، وكانت الحجج المذكورة فى نظره أربعة :

١ — الاحتلال الأجنبى لدويلات البابا . ٢ — الاستبداد المخيم على البلاد . ٣ — توتر العلاقات بين بيمونته والنمسة .

٤ — معاهدات سنة ١٨٤٧ التى عهدت للنمسة بقمع كل حركة فى الدوقيات ، فإذا ما استطاعت إنجلتره بتوسط ودى أن تتلافى هذه الأسباب أصبح اجتناب الحرب ممكنا ، وقد وافق الامبراطور على المنهج الانجليزى بتحفظ ، أما النمسة فظهر أنها مستعدة للتساهل وأرسلت إنجلتره اللورد (كوله ى) ، إلى فينا بمهمة خاصة ولكن الامبراطور ظل على تردده المعهود ، وأخذ هو وكافور ينكران المرة تلو المرة أى تصميم على مهاجمة النمسة . ثم مال الامبراطور إلى الاقتناع بتأجيل المخاصمات إلى أجل غير مسمى . وازداد تهديد المانية وأخذ وزراء نابليون الذين كانوا يجهلون معاهدة ١٨ كانون الثانى يبذلون جهدهم لمسك الامبراطور ، وفى ٥ آذار — ظهر مقال فى جريدة المونيور يؤكد بأن الامبراطور

غير ملزم بمساعدة بيمونته مالم تهاجم ، ولما اطلع فيكتور عمانؤيل على المقال المذكور أرسل إلى الإمبراطور كتاباً يهدد فيه باعتزال عرشه إذا تخلى الإمبراطور عنه ، ولما رأى الإمبراطور أن الأمور سوف تتعقد فى تورينو أرسل إلى فيكتور عمانؤيل رسالة مطمئنة ، ورأى أخيراً أن أحسن وسيلة للتخلف من تعهداته لبيمونته أن يحيل الأمر على مؤتمر دولى ، وربما كان يتوقع أن يحمله ضغط الدول المعظمة على التخلص من تعهداته وأما إذا كانت الحرب لامناص منها فإنه يكون قد كسب الوقت لمقاتلة النمسة وهو على استعداد حسن . وبإيعاز منه طلبت روسية عقد المؤتمر فى ١٨ آذار فوافق مالسبورى على ذلك وحذت بروسية حذوه ، أما النمسة فوافقت بتحفظ زائد طالبة أن تسرح بيمونته قواتها والمتطوعين قبل انعقاد المؤتمر .

وحاولت إنجلترة الضغط على بيمونته لحملها على الموافقة وقالت إنها تتعهد بالاشتراك مع فرنسة الوقوف فى وجه أى هجوم نمسوى عليها ولكن كافور رفض الموافقة على تسريح القوات ، ووعد بالا يهاجم النمسة إذا كفت فى المستقبل عن أى تجاوز بيد أنه كان يشعر بخطورة ما قد يولده عدم الاعتراف بالمؤتمر من استقرار أوربا كلها ومع ذلك فإنه اقتنع بأن تفاهم الدول الخمس فى المؤتمر المذكور سيؤدى إلى القضاء على آماله ولن تبقى لديه أية وسيلة يتخذها لحمل النمسة على إعلان الحرب ؛ وعليه فإن بيمونته تصبح

منعزلة وعاجزة ثم خيل إليه أن المؤتمر إنما هو إدارة اتخذها الامبراطور للتعمية واكتساب الوقت فرأى أن يشاطر الأمبراطور الخداع ولكنه ظل يتردد بين الشك واليقين وينذر ويتوعد الامبراطور بأنه سيضع البارود فى النار إذا نكث الامبراطور بوعده ، وقد استدعى الامبراطور كافور إليه وأخذ يسعى لتهدئته وربما حاول بكل جهده أن يحمل كافور على الموافقة على تصريح الجنود ، والمعروف أن كافور هدد الامبراطور بتنزل الملك عن عرشه وذهابه إلى أمريكا الجنوبية ونشر كتب الامبراطور وتفاصيل محادثات بلومبير ، وقد أحس الامبراطور أنه أصبح فى قبضة هذا الرجل وأن فى طوق كافور أن يثير سخط أوربا عليه فبذل جهده لمراضاته وذهب كافور إلى تورينو واثقا بأن الحرب واقعة لا محالة منها ، وأن النمسة لم توافق بادىء بدء على عقد المؤتمر إلا مرغمة ، إذ كانت ترتاب من النية التى دفعت إلى عقد المؤتمر وأنه لا يقصد منه سوى إعطاء الوقت اللازم لفرنسة حتى تتهيأ جيوشها . وكانت الأمور جميعها فى النمسة تتجه نحو إحباط سياسة السلم ووضع مقاليد الأمور بيد أنصار الحرب ولا سيما بعد أن شجعت إنجلتره بواسطة مندوبها كوله ى النمسة بأن وعدتها بمساعدتها إذا تحرجت الأمور ، أما فى ألمانية فهناك أسباب وجيهة تنبىء بأن الهياج فيها سيضطر بروسية والدول الصغيرة إلى عقد اتفاق مع النمسة ، وكان الامبراطور فرنسو جوزيف والحزب العسكرى

فى النمسة يرغبان أشد الرغبة فى معاقبة بيمونته البغيضة ويظنان أنهما يستطيعان سحقها قبل وصول النجدات الافرنسية إليها ، ومع أن رئيس الوزراء النمسوى وعد رسمياً بأن لا يهاجم بيمونته إلا أنه أصبح فى موقف لا يستطيع معه أن يفى بوعده ، وظلت النمسة مصرة على المطالبة بتسريح الجنود فى بيمونته ورفضت اشتراك مندوبى بيمونته فى المؤتمر ، فسنحت بذلك لكافور الفرصة إذ رفض تسريح الجنود أوالاشتراك فى المؤتمر ما لم يكن فى وضع الند للند بالنسبة إلى الدول الأخرى ، وأدرك ما لسبورى أن هذا الرفض ضربة قاضية على المشروع ، ثم قدم اقتراحاً أصر عليه باعتباره آخر تدبير ممكن لتسوية الأمور وهذا الاقتراح كانت فرنسة اقترحته قبلا وهو يقضى بتخفيض عدد الجيوش الثلاثة (الافرنسى والنمسوى والبيمونتى) إلى الملاك السلمى ، فتظاهرت فرنسة بقبول الاقتراح وطلبت من بيمونته رسمياً الموافقة عليه بيد أن كافور وفقا لتحريض الامبراطور الخفى أخذ يماطل ويقدم طلبات يعلم بأنها لا تقبل بسهولة وفى الموعد الذى طالب مالسبورى فيه بتسريح عام دعت النمسة جنود الاحتياط إلى النمسة رغم أنها وافقت على التسريح .

* وفى ٩ — نيسان عزمت الحكومة النمسوية على إرسال انذار إلى بيمونته تطلب إليها فيه تخفيض جيشها إلى ملاك السلم وتسريح المتطوعين وإلا فهى تعلن الحرب عليها ، وخشى الامبراطور ، لويس نابليون أن يسحق الجيش النمسوى قبل وصول قواته إلى إيطالية

ومخافة أن تسبق النمسة الحوادث فأرسل إلى تورينو برقية يطلب فيها إلى الحكومة تخفيض الجيش ، واستلم كافور هذه البرقية ليلة ١٨ — نيسان فأضاع رشده وقال إنه سوف ينتحر ثم أجاب والحزن يملأ قلبه أن بيمونته سوف تخضع لمشيئة أوربا ولكن ما أسرع ما انقلب حزنه إلى فرح لأن النمسة قبل أن تعلم بموافقة بيمونته على تسريح جيشها أرسلت الإنذار ووصل حامل كتاب رئيس الوزراء النمسوية إلى تورينو يطلب فيه إلى بيمونته أن تسرح جيشها بعد ثلاثة أيام وينذرها بالزحف العاجل إذا هي رفضت ، وهكذا في الوقت الحرج الذي كاد كافور فيه أن يحقق إخفاقاً كلياً انفرجت أزمته وأصبح سيد الموقف بفضل خطأ خصمه المشؤوم . بهذا الإنذار ظهرت النمسه بمظهر المعتدية ثم إنها أصبحت البادئة بالخصومة ، ولقد قطعت النمسة علاقاتها السياسية ببيمونته وتأكد كافور بأن فرنسة سوف تمد يد المساعدة إليه وان عدوه فقد عطف أوربا السياسي أما نابليون فقد أعلن الحرب على النمسه رسمياً في ٢٩ نيسان ١٥٨٩

الفصل السادس والعشرون

حرب سنة ١٨٥٩

نيسان ، تموز — ١٨٥٩

لقد كان الإنذار الذى وجهته النمسه إلى بيمونته خطأ سياسياً إذ أغضب أصدقاءها وجعلها منعزلة ومتهمة من قبل الرأى العام الأوربى ، وقد انقلب العطف الانجليزى إلى غضب وبذلت كل من الوزارتين الانجليزية فى لنـدن والروسية فى بطرسبرج نفوذها للحيلولة دون انضمام البلاطات الألمـانية الصغيرة إلى النمسه ، أما بروسية فقد سخطت على عمل النمسه الأهوج وصممت بعزم على أن لا تنجرف إلى الحرب خلافاً لرغبتها وعقدت النية على أن لا تعير أهمية إلى أى قرار يتخذه مجلس الاتحاد يتعلق بإعلان الحرب .

ثم ما كاد الخبر يصل إلى باريس حتى تفجرت الحماسة الشعبية التى شملت فرنسه بأجمعها ما عدا الحزب الاكليريكى انتصاراً للقضية النبيلة التى — احتضنتها ، أما فى بيمونته فتنفس الناس الصعداء لانتهاء الأزمة على هذا الشكل بعد أن توترت مدة طويلة . وقد عين مجلس الأمة الملك دكتاتوراً طول مدة الحرب ثم عطل جلساته ؛

وأخذ معظم الأشراف الذين يمقتون السياسة القومية يقدمون أولادهم للدفاع عن شرف بيمونته ، ووقف كافور فى المجلس النيابى خطيبا قبيل حله يقول : « ان هذا المجلس هو آخر مجلس بيمونتى ، أما المجلس القادم فسيكون مجلس المملكة الإيطالية » ، وهكذا نزلت الأمة إلى ساحة الوغى بعزم وثبات — وكان الناس يدركون خطورة العمل الذى أقدمت الحكومة عليه والذى مصيره إما إلى انكسار يؤدى إلى أن يحتل العدو تورينو وفى هذا القضاء على الحرية والاستقلال وأما إلى انتصار وهذا يتطلب تضحيات جسيمة وآلاما لا حد لها ، فلم يكن بد للأمة من أن توطد القدم على اجتناب أى شىء يخل بالثقة والاعتماد على الملك والحكومة التى هيأت لإيطالية مثل هذه الفرصة السعيدة .

بدأت الحرب فى ٢٦ نيسان وشرعت القوات النمسوية بعد ثلاثة أيام باجتياز نهر تسينا فى سرعة استهدفت فيها سحق الجيش البيمونتى قبل وصول النجدات الافرنسية ؛ مع أن وزير الحربية البيمونتى قد استعد منذ سنوات لدرء هذا الخطر فأسس معسكراً حصيناً فى مثلث (الكسندرية ، فالنزه ، وكساله) حيث احتشد ستون ألف جندى من الجيش البيمونتى ، وكانت قوة النمسويين تبلغ مائة وستين ألفاً ؛ فلو كان على رأسها قائد ماهر نشيط لسحق الجيش البيمونتى قبل مجىء القوات الافرنسية ودخل تورينو ، ولكن القائد النمسوى أضاع وقته فى حركات ثانوية ثم تقدم نحو

تورينو ، فوصلت مقدمته فى ٨ أيار إلى بضعة فراسخ من العاصمة ، فاستعدت تورينو لدفاع مستميت اضطلع به حرسها القومى وثمانية آلاف من الافرنسيين الذين قدموا نجدة إليها ، وحمل الأهلون فى الأرياف السلاح ونزل غاريبالدى ومتطوعته إلى الميدان . وبعد ثلاثة أسابيع من الشروع فى الحركات تقدم الجيش الإفرنسى والبيمونتى نحو المواضع التى احتلتها القوات النمسوية . وفى ٣٠ أيار هاجمت القوات البيمونتية مواضع النمسويين وراء نهر (سيسيه) واستولت عليها قبل وصول القوات الافرنسية إليها وكان الملك فيكتور عمانوئيل يقود الهجوم بنفسه .

وبعد أن حارب غاريبالدى فى أطراف البحيرات توجه نحو لمبارديه على رأس المتطوعين البالغ عددهم خمسة آلاف وكانوا خليطاً من جميع الطبقات منهم أشراف ومنهم فنانون وطلاب وأطباء وعمال وكلهم تركوا مساكنهم وضحوا براحتهم فى سبيل الحرية ، وتوغل غاريبالدى فى بلاد العدو فى جرأة لتشجيع اللمبارديين على الثورة بعيداً عن ساحة الحركات ومعتمداً على صداقة الأهلين . وقد تغلب بثلاثة آلاف جندى على عدد يفوقه بثلاثة أمثاله ، وكانت إيطاليه تتلقى أخبار انتصارات غاريبالدى بفرح لا حد له ، وفى أوائل شهر حزيران تغلب الجيشان — الإفرنسى والبيمونتى على الجيش النمسوى فى معركة (ماجنتا) واضطره إلى الانسحاب إلى القلاع الأربع فافتتح بذلك طريق ميلانو أمام البيمونتيين والإفرنسيين ،

وما كاد خبر الانتصار يصل إلى ميلانو حتى أعلن المجلس البلدى اتحاد لمبارديه ببيمونته ودخل الامبراطور والملك فى ٨ — حزيران ميلانو باحتفال مهيب واستقبلها الأهلون بحماسة بلغت حد الجنون وقد أثر هـذا الاستقبال فى نفس الامبراطور تأثيراً حسناً حتى قال فى بلاغ له ما يلى : « إنما يحارب جيشى أعداءكم ويحافظ على الأمن فى بلادكم ولن يكون عثرة فى سبيل إظهار رغباتكم المشروعة بحرية » . وكانت ماسة كرارة قد ثارت فى بدء الحرب وطردت طوسكانة أميرها وأعلنت ولاءها للملك وأعلن فيكتور عمانوئيل انضمام لمبارديه إلى بيمونته وهرب دوقا مودينه وبارمه مع حاميتهما النمسويتين فجددت الدولتان المذكورتان معاهدة الانضمام سنة ١٨٤٨ فى ١٣ حزيران ، وتركت الحامية النمسوية بولونية من ١١ — حزيران . وفى خلال أسبوع امتد لهيب الثورة إلى الرومانى والمارك وإلى قسم من أومبريه ومع أن قوات البابا استطاعت أن تسيطر على الموقف فى القطرين الأخيرين إلا أن الرومانى نادت بفكتور عمانوئيل دكتاتوراً عليها .

وفى ١٨ — حزيران وقف الجيش النمسوى وراء مينجيو وتولى الامبراطور فرنسوا جوزيف قيادة الجيش الامبية بعد أن عزل القائد السابق وزحف الجيشان — الافرنسى والبيمونتى يتقدمهما غاريبالدى بمتطوعته وفيلق جيالدينى البيمونتى ؛ وفى ٢٤ — حزيران نشبت المعركة بهجوم الافرنسيين والبيمونتيين

على مواضع النمسويين فى (صولفرينو وسان مارتينو) وبعد قتال استمر من الصباح إلى ساعة متأخرة من المساء تغلب الحليفان على عدوهما فكانت خسارة الإفرنسيين فى هذه المعركة الدامية اثنى عشر ألفاً بين قتيل وجريح ، أما خسارة البيمونتيين فكانت أعظم من خسارة الافرنسيين إذا قيست بنسبة عـدد الجيشين . وكانت معركة صولفرينو بشيراً بسرعة انتهاء الحرب . ويتلخص الموقف الحربى بما يلى : كان الجيش النمسوى يستطيع المقاومة فى القلاع الأربع مدة طويلة ولـكن عدوه إذا اسـتطاع أن يضبط البندقية من البحر ، وإذا ما انتصر الحليفان عليـه وراء بيجيو أصبحت طريق العاصمة فينا مفتوحة أمامهما وبذلك يتم تحرير ايطالية وقد يؤدى انتصارهما إلى انفصال هنغارية عن النمسه وانهيـار النفوذ النمسوى فى ألمـانيا كلها . هذا بالنسبة إلى النمسه ، أما بالنسبة إلى فرنسه فإن الحرب قد دلت الامبراطور لويس نابليون على عجز قادته فى القيادة وجعلته يشك فى مقدرته العسكرية ولا سيما لأن النمسه رغم ارتباك ماليتها وخزانتهـا الخاوية ، ورغم تأهب الهنغاريين والسلاف للثورة عليها فلا تزال تسـيطر على مصادر عسكرية جسيمة ، إذ لها فى ايالة فنيسيه مائة وخمسون ألفاً من الجنود ، ومائة ألف آخر بين تريسته وفينا ، فإذا انتهت المعركة القادمة على غير ما انتهت إليه سابقتها فإن الامبراطور يقع فى مأزق لا مخرج له منه ويفقد بذلك السمعة التى كسبها من أجل ذلك ؛ ففترت

حماسته لإيطاليه فتوراً عظيما ، وأخذ يتذمر بمرارة وعلى غير حق من عجز الأيالات المحررة من تجهيز قوات مدربة إلى ميدان القتال ورغم أن التقارير (وكانت كاذبة) تخبره بأن القرويين وراء منيجيو أعداء للحركة . ومن عوامل فتوره حنقه على الحوادث التى كانت تجرى فى إيطاليه الوسطى وكانت لا تهدد مشروعه الاتحادى فحسب بل تجره إلى نزاع مع الحزب الاكليريكى الافرنسى ، وهو غير راغب فيه ، ثم إن الرأى العام فى طوسكانة ، والرومانى قد أعرب بعزم عن رغبته فى الانضمام إلى بيمونته ، وكان مؤكداً أن تحذو أومبريه والمارك حذوها حالما تسنح أقل فرصة إلى ذلك . إن الامبراطور كان يعلم بأن كافور يسعى بكل قوته إلى توحيد إيطاليه الشمالية وإيطاليه الوسطى بادماجها فى مملكة ضخمة ، فإذا ماخرج الطليان من هذه الحرب منتصرين الانتصار كله أصبحت السيطرة عليهم عسيرة وفضلا عن ذلك أنه أتى إلى إيطاليه معلناً بأنه لن يقدم على الإخلال بسلطة البابا ومع أن ميثاق بلومبير كان يقضى بمساعدة بيمونته فى الاستيلاء على الرومانى فإن خشية جانب الاكليريكيين جعلته يرغب أحياناً فى التنصل من وعده ، ولقد قرر أخيراً أن يترك الرومانى تختار المصير الذى ترضيه كما اعتزم أن يترك أومبريه والمارك للبابا وأن يحول دون انضمام طوسكانه إلى بيمونته .

وهناك عامل خطير هو الذى جعل الامبراطور يغير خططه ويميل إلى سياسة السلم ؛ ذلك هو موقف ألمانيا ، لقد شجعه موقف بروسيه بادئ الأمر على المضى فى طريقه ولا سيما بعد أن بلغت حكومة برلين روسيه نصيحة مشفوعة بتهديد بأن لا تتحرك ، فضلا عن أنها كانت تعلم أن انكسار النمسه من شأنه أن يفسح لها مجال الزعامة فى ألمانية ؛ وإذا انتصرت فرنسه فإنها ستهاجم بروسيه عاجلا أو آجلا . وحنق الرأى العام فى ألمانية على بروسيه واتهمها بالخيانة الوطنية فى وقوفها موقف المتفرج فى حرب يقهر فيها العدو الأرثى العريق لألمانية دولة ألمانية ؛ فقررت الحكومة البروسيه مخاصمة ذات وجهين تجاه المخاصمين ، فأعلنت النفير بعد معركة ماجنتا وعرضت على النمسه وساطتها المسلحة إذا هى تخلت لبروسيه عن رئاسة مجلس الاتحاد الألمانى وفسخت المعاهدة المعقودة مع الدوقيات الإيطالية إرضاء للرأى العام الأوربى . وأعقبت ذلك بدعوة أربع فيالق من جيش الاتحاد للسلاح فى ٢٤ — حزيران وطلبت إلى روسيه وانجلترة أن تتفقا وإياها . وبدأت روسيه ترتاب من الحركات فى إيطاليه وأخذت تخشى سريان عدوى الثورة فى هنغاريه إلى بلاد بولونيه لذلك رضيت بأن تشترك فى الوساطة السلمية ، ومع أن الوزارة البروسية والت مساعيها السلمية فإنها عادت بعد معركة صولفرينو فأخبرت النمسه

بوضوح بأن لا تتوقع مساعدة ألمانية مسلحة ، وحشدت فى الوقت نفسه قواتها على نهر الرين الأمر الذى أفزع الامبراطور إذ أدرك بأنه إذا رفض التوسط فقد تجتاز الجيوش البروسية حدود فرنسه غير المحميه ؛ ومن كل ما مر معنا يظهر أن جميع الأحوال كانت تحث الامبراطور على الرغبة فى إنهاء الحرب ؛ إلا أنه لم يكن يريد أن تكون بروسيه هى البادية فلذلك أبرق إلى سفيره فى لندن بعد معركة صولفرينو ببضعة أيام يطلب إليه أن يجس نبض الحكومة الانكليزية فيما إذا كانت ترغب فى هدنة تكون أساساً للسلم وتقضى بترك لمبارديه وبارمه لبيمونته وإدارة الرومانى من قبل فكتور عمانوئيل على أن يبقى تحت سيادة البابا وتؤلف فينيسيه وموديته دولة مستقلة يحكمها أرشيدوق نمساوى وتعاد طوسكانه للحكم الدوق الكبير ثم تؤلف جميع الدول الإيطالية اتحاداً برئاسة البابا .

وكانت وزارة دربى قد سقطت وخلفتها وزارة بالمرستون وتولى اللورد رسل وزارة الخارجية فيها وكان بالمرستون يستهدف فى سياسته إيجاد مملكة إيطالية قوية تستطيع مقاومة النمسه وفرنسه معاً . وحدث أن تحادث السفير الافرنسى مع رسل وزير الخارجية حديثاً أخطأ السفير فى فهمه وأرسل إلى الامبراطور يخبره بأن انجلتره توافق على التوسط بموجب الشروط التى اقترحها . وقبل أن يصل

جواب السفير إليه ارتأى — الامبراطور أن يفاتح امبراطور النمسه وأخذ فى الوقت نفسه يتأهب للقتال فيما إذا رفض تكليفه السخى ثم اجتمع بكوسوت الوطنى المنغارى ووعده بإيفاد قوة عسكرية إلى هنغارية فيما إذا استمرت الحرب . وفى ٩ — تموز جاء رسول نابليون يكلف فرنسوا جوزيف بالهدنة فى الوقت الذى أدرك أنه لا يستطيع انقاذ فنيسيه وأن بروسيه خذلته ، وعلى أثر ذلك اجتمع الامبراطوران فى فيلافرنكه وكان نابليون الثالث فى موقف يستطيع فيه أن يملى شروطه على عدوه ، وجرت المفاوضات بين الاثنين ورفض فرنسوا جوزيف تكليف نابليون بتشكيل مملكة مستقلة يحكمها الارشيدوق ماكسمليان وعرض على نابليون أن يترك له لمبارديه شريطة أن يسلمها هو إلى بيمونته ورغم موافقته أن تنضم إيالة فنيسيه إلى الاتحاد الإيطالى إلا أنه فضل الاستمرار على الحرب على ترك هذه الايالة والقلاع الأربع وتم الاتفاق على أن تعطى سردنية لمبارديه إلى بيمونته بيد أنه نص فى شروط الهدنة على أن ترجع موديته وطوسكانه إلى أميريهما وكذلك تعود الرومانى إلى البابا وتعهد الامبراطور بأن يساعد على تأسيس الاتحاد الايطالى برياسة البابا .

وكان وقع خبر الهدنة على الطليان كصاعقة فى جو ملبد بالغيوم وقد عُقدت دون أن يطلع عليها أحد حتى الملك فيكتور عمانوئيل

نفسه لم يعلم بها . ولما اطلع على هذه الخيانة قال حانقاً إنه سوف يستأنف القتال وحده ، إلا أنه أدرك عجزه ذلك ورضى بالتوقيع على المعاهدة المخزية . أما كافور فامتنع الخضوع للأمر الواقع وسارع حين اطلع على الخبر المشؤوم إلى المعسكر فضغط على الملك وأعاد الضغط عليه لكيلا لا يقبل الشروط ولما رفض الملك تكليفه وجه إليه كلاماً لاذعاً ، خرج فيه عن حدود الاحترام .

الفصل السابع والعشرون

بعد فيلا فرنكه

تموز أيلول — ١٨٥٩

أثارت أخبار فيلا فرنكه استياء عاماً فى إيطاليه ، فكأن الحرب قد نشبت للا شيء وكأنما ذهبت جميع الأموال التى أنفقت والنفوس التى أزهقت والجهود التى بذلت سدى ، ولم تكسب بيمونته من كل هذا الغرم إلا لمبارديه فقط ، أما فنيسيه وطوسكانه والرومانى فلم تكد تتنفس الصعداء بضعة أسابيع حتى رأت جميع آمالها تنهار إذ خانها حليفها وتآمرت أوربا كلها ماعدا انجلتره ضدها . وأخذ الطليان يجهرون بسخطهم على الامبراطور الذى وهن عزمه فى الساعة الحاسمة وقد استقبلته ميلانو وتورينو حين عودته بإعراض وصمت بليغين وهما اللتان استقبلتاه منذ أسابيع بحماسة فائقة ، وعلقت صور أورسينى فى أوجه الدكاكين ؛ وقد شاع أن الملك أخبر الامبراطور بأنه لن يوقع على المعاهدة . أما كافور فقدم استقالته وقال لكوسوت ذات مرة « لقد أهانني الامبراطور أمام ملكى . . . لن يتم الصلح . . . وإذا اقتضى

الأمر فسأصافح ديللا مرجريتا بيد ومازيني باليد الأخرى وسأغدو ثورياً متآمراً » ولما أفاق الطليان من ذهولهم وجدوا في نفوسهم من القوة ما يستطيعون بها المقاومة ، فكاد الشعب بأجمعه يتآمر لإحباط مشاريع الملوك العظام والعمل في سبيل سلامته وحريته واستقلاله وهنا يجدر بنا أن نسجل ما حدث في أقطار ايطاليه في هذه الفترة ونبدأ بطوسكانه فنقول :

لقد كان الدوق الكبير قبل الحرب مصراً على التمسك بسياسة الحياد فرفض تلبية طلب النمسة بارسال كتيبة إليها وقد طلب إليه مندوب كافور ، بون كومباني ، الدخول في الحلف وأرادت حكومتا فرنسة وبيمونته إغراءه على قبول هذا الطلب بالإعراب عن استعدادهما لحماية عرشه وكان بعض الأشراف في طوسكانه لايزالون يقولون بوجود حكم ذاتي في طوسكانه ويرغبون في إنقاذ آل لورين ويرون أن تحقيق ذلك يكون بتحالف الدوق مع بيمونته . ثم إن الدومقراطيين أنفسهم كانوا على استعداد للتساهل فيما إذا وافق الدوق الكبير على شروط كافور بيد أن لئوبولد بقي متصلبا في رأيه ولم يكترث لنصائح الأشراف المخلصين ولم يلتفت إلى إرشادات وزرائه ولم يقم وزناً لنفور جيشه منه وقد جعل رفضه الحلف الثورة أمرا لا مناص منه ، فاتفق الحزبان القوميان ضده وقرر تأليف حكومة تكون حليفة لبيمونته ، وبلغ من تضامن الأحزاب في هذا الشأن أن أنصار مازاريني بأن يتولى الأشراف

الأحرار قيادة الحركة وقد اضطرهم عناد الدوق الكبير إلى أن يبدؤوا بالعمل تواً ، وأخذ الشعب والجيش يهددان بالثورة وصمم الأشراف بتحريض من كافور على القيام بمظاهرة تجبر الدوق الكبير على اختيار أحد الحالتين : « الحلف مع بيمونته أو التنزل عن العرش موقتاً » وفى صباح ٢٧ — نيسان تأكد الدوق الكبير من خيانة الجنود بمطالباتهم اياه السماح لهم برفع العلم المثلث الألوان ولما حاول ابنه تحريض المدفعية الموجودة فى قصر على التأهب لقصف المدينة أجابه الضباط بالرفض البات ؛ فما كان من الدوق الكبير إلا أن أنكر موقفه السابق وعرض على المتظاهرين منح الدستور وعقد الحلف مع بيمونته ولكن المتظاهرين رفضوا الموافقة على هذا المنح وطلبوا إليه التنازل عن العرش فاضطر فى مساء ذلك اليوم إلى الهرب من فلورنسه .

وحذت مدن طوسكانة الأخرى حذو فلورنسه فأرسلت ٢١٧ ناحية من ٢٤٦ ناحية موافقتها العاجلة على ما تم وتأسست على أثر ذلك حكومة وقتية نادت بفكتور عما نوئيل دكتاتوراً عسكرياً طول مدة الحرب ، وقد خشى كافور أن يمانع نابليون فى ذلك لأنه كان ينوى أن ينصب أميراً افرنسياً على عرش مملكة إيطاليه الوسطى إذا استطاع أن يقوم بذلك من دون أن يجلب سخط أوربا ، ولكى يحول الامبراطور دون أى حركة جمهورية أرسل فيلقه الخامس إلى طوسكانه تحت إمرة الأمير نابليون ليمهد سبيل

ارتقائه العرش ولكن كافور توفق إلى إقناع الامبراطور بالتخلى عن نيته بشأن عرش طوسكانه ، ولكن الامبراطور لم يكن جاداً فى هذا التخلى ، وإنما أدرك أن مشروعه يثير شكوك أوربا نحوه . أما الأمير نابليون فقد جس نبض فلورنسه بعد وصوله إليها واقتنع بأنه ليس ثمة أمل له فى النجاح . وقد تأثر بالاستقبال الحافل الذى استقبل به وغدا المدافع الغيور عن فكرة إلحاق طوسكانه ببيمونته : وبذلك دلت الأمور على أن البلاد سائرة نحو الوحدة ، وقد عين بون كومبانى مندوب كافور مندوبا ساميا عن بيمونته فى طوسكانه . وكانت وزارته تتألف خصيصاً من الأشراف أى أنصار الحكم الذاتى ربما كانوا يتوقعون عودة آل لورين ، الا أن وطنيتهم جعلتهم لا يتخلون عن كومبانى ، وأصبح ريكاسولى الذى تولى وزارة الداخلية فيها المهيمن على الوزارة . وقد امتلأت نفسه غبطة بمشاهدة الرأى العام يشتد ميله نحو الانضمام إلى بيمونته والخروج بطوسكانه من عزلتها المخيفة ، وأرسل الطوسكانيون بعد أول انتصار فى باليسترة بيانا يعلنون فيه فيكتور عمانوئيل ملكا على إيطاليه ووقّع (ريكاسولى) وزميله (سالفا جنولى) عليه رغم غضب المتحزبين لفكرة الحكم الذاتى ، بيد أنه حينما أخذ كافور يشجع الدعاية الانضمامية بشدة خشية أن يعود الإمبراطور إلى مشاريعه القديمة احتج ريكاسولى على هذه الدعاية التى ترمى إلى القضاء على الامتيازات الطوسكانية المحلية لأن ريكاسولى

لم يكن يستهدف الاندماج الكلى ببيمونته حتى تصبح ايالة محرومة من تشريعها الاجتماعى الأكثر رقياً منه فى الدول الأخرى ومن تقدمها فى الناحيتين الثقافية والفنية ، بل كان يرغب فى أن تصبح طوسكانه عضواً متساوياً للأعضاء الذين تتألف منهم مملكة إيطاليه العظيمة . وأخذ أمثال كابونى الذين ظلوا مترددين طويلا بين شعورهم القومى وتعلقهم بالعرف والاستقلال الطوسكانى يجهرون برغبتهم فى الوحدة مع بيمونته بشروط وعلى ألا يكون هناك اندماج تام . أما أنصار الحكم الذاتى الافحاح فكانوا يريدون أن يحولوا دون تأسيس دولة نابليونية مهما كلفهم الأمر ، فكان الانضمام إلى بيمونته وحده يقيهم شر ملكية الأمير نابليون وجمهورية مازينى معاً ، فأبرقت الوزارة بهذا النبأ وعلى أثر إعلان ميلانو الانضمام بأسبوع واحد قررت الوزارة بالإجماع سيادة فيكتور عمانوئيل على البلاد ، وارتأى كافور أن سبيل إقناع الإمبراطور بالرضاء عن انضمام طوسكانه لبيمونته إنما يكون بالبرهنة على أن الطوسكانيين يريدون الانضمام إلى بيمونته بالإجماع . وقد تجلى ذلك الاجماع بورود طلبات الانضمام المختومة من ٢٢٥ ناحية من مجموع ٢٤٦ وهذه النسبة تمثل أحد عشر من اثنى عشر من نفوس الأهلين .

وبينما كانت الحركة القومية فى طوسكانه تعم وتتقوى أسبوعياً ، كانت الأمور فى دول البابا تسير فى صعوبة وعسر وقد حذت

جميع مدن الرومانى حذو مدينة بولونية وفى أسبوع واحد امتدت الثورة إلى جميع أنحاء المارك إلى أنكونة ، وفى أوميريه إلى (بيروزه) . وبعد أن أصدر البابا قرار تحريم بحق القائمين بالحركة استعد للقضاء عليها بالقوة فهاجم الجنود السويسريون مدينة بيروزه فى ٢٠ — حزيران ، ومع أن أحسن رجال المدينة كانوا قد ذهبوا للقتال فى لمبارديه ولم يكن بيد المدافعين عنها سوى بضع مئات من البنادق القديمة فإن الذين دافعوا عنها استماتوا فى دفاعهم. وأمرت حكومة البابا قائد السويسريين بأن يستعمل أقصى الشدة لتصبح عبرة لغيرها ، فأباح القائد لجنوده نهب المدينة وانتهكت حرمات الكنائس وأحرقت الدور ودكت دكا ، وقتل النساء والشيوخ ، وقد كان البابا يقدس هؤلاء القساة على فظائعهم وأعد وساماً لتخليد هذا العمل الشنيع ، وأدى سقوط بيروزه إلى خضوع أوميريه والمارك فأعادت حكومة البابا نفوذها إلى حدود الرومانى . ولم تستطع القوات السويسرية التقدم أكثر من ذلك لأن بعض الجنود البيمونتية كانوا فى بولونية وأخذ المتطوعون يحتشدون لدفع أى عدوان .

وكان أول عمل قامت به الجمعية (لاجونتا) الوقتية فى الرومانى إعلانها قبول دكتاتورية فيكتور عمانوئيل من دون قيد ولم يكن فى الرومانى من أنصار الحكم الذاتى سوى أفراد قلائل ، وعلى أثر ذلك نصبت حكومة تورينو دازجليو مندوباً سامياً عن

الملك ؛ بيد أن الامبراطور نابليون عاد فقابل هذا العمل بالرفض مع أنه صرح إلى أحد أعضاء جمعية جونتا بأنه لن يوافق على إعادة سلطة البابا إلى بولونيه إلا أنه كان من جهة أخرى يخشى معارضة الحزب الاكليريكى فى فرنسه ، وكان عازماً على سحب جنوده من روما حالما يتم طرد النمسويين من شبه الجزيرة . وكان نابليون دون ريب لا يزال يحتفظ بأمل ضعيف فى حل القضية بإقناع البابا عن التخلى فى طيبة خاطر عن بعض أجزاء دويلاته وأن ينضم إلى مملكة إيطاليه الوسطى . وكان الأحرار الافرنسيون يتمزقون غضباً لمظالم بيروزه . ويظهر أن الإمبراطور كان قد أفهم كافور قبل فيلاّ فرنكه بأنه يساعده على أخذ الرومانى ولعله اشترط عليه بأن يمارس البابا حق سيادته عليها وبعد مرور بضعة أيام على هـذا الحديث وصل دازجيلو إلى بولونيه متزوداً بصلاحيات جُعلت محدودة وذلك عملا برغبات الامبراطور ، بيد أنه ضرب بالتعليمات التى أصدرت إليـه عرض الحائط وقبض على زمام الحـكومة بالفعل وكان كافور قد تخلى فى ذلك الوقت عن خطته بشأن أوميريه فأخذ يشجع أهل المـارك على الثورة بهمة .

يتضح لنا مما مضى أن الرغبة فى الوحدة قبل فيلاّ فرنكه قد اشـتدت فى جميع أنحاء إيطاليه ، وكان اكتشاف المؤامرة التى دبرت فى قصر الدوق الـكبير ووجود ابنـه فى الجيش النمسوى فى معركة صولفرينو قد أزالا اعتبار آل لورين فى نظر أشـد

المخلصين لهم . كما أن حادثة بيروزه حملت أهل الرومانى على التسلح لمقاومة متطوعة البابا مهما كلفهم الأمر . وأخذت الرغبة فى تأسيس مملكة قوية تحتوى جميع أقسام إيطاليه الشمالية والوسطى تقوى وتشتد باستمرار فى نفوس الجماعات القومية على اختلاف نزعاتها ؛ على أن بعض الناس كانوا لا يزالون يميلون إلى الحكم الذاتى وأمثال كابونى وريد ولقى قد وافقوا على الانضمام مكرهين لأنهم لم يجدوا حلا آخر غير الانضمام ، وجاءت حادثة فيلاّ فرنكه فعدلت الآراء إذ ظهر أن الاتحاد أمر يصعب إنجازه مادام النمسويون فى فنيسيه ومادام جيش البابا يهدد مقاطعة لا كاثوليكه فى الرومانى ودوقه مودينه يتحين الفرصة لاجتياز نهر پو بجنوده ، فالاتحاد فى حالة وجود هذه العوامل سيظل حبراً على ورق أو ساحة نزاع بين المبادئ سيجر إلى الحرب عاجلا أو آجلا ، وأصبحت فكرة الوحدة عقيدة ولما حاول رتازى الذى تولى رئاسة الوزارة بعد كافور أن ينفذ شروط المعاهدة ، وجد نفسه أمام اجتماع شعبى عام وتآمر شامل للقضاء على هذه المعاهدات والحيلولة دون تنفيذ شروطها . ووجد الطليان فى الوسط زعيمين من الطراز الذى يحتاجون إليه رجلين عنيدين ، صلبين ، حازمين ، لا يخافان المسئولية ولا تؤثر فيهما المخاطر والدسائس ولا التملق ولا الوعيد . أما الأول فهو لافارنيا ، وقد برهن كافور عن نظر ثاقب بعيد بإرسال زميله وصديقه لافارينا إلى مودينه لما ثارت بعد معركة ماجنتا ،

وكان لافارينا طبيباً من أهل رافينه وقد اشترك فى عدة مؤامرات ، وبعد أن ظل فى المنفى مدة قصيرة عاد بعد العفو الذى أعلنه البابا بيوس ولعب دوراً خطيراً بين الأحرار المعتدلين فى أياليته ، والتجأ سنة ١٨٤٩ الى بيمونته ولعله غدا أول نصير لـكافور فى مجلس الأمة ، وكان لافارينا رجلا شعبياً شجاعاً نزيهاً متحلياً بإرادة قوية وعزيمة ماضية وقد جعلته معاهدة فيلا فرنكه لا يعبأ بأوامر فرنسه وبتهديدات النمسويين .

أما الثانى فـكان ريكاسولى زعيم طوسكانه وهو أجمل وجوه تاريخ إيطاليه الحديثة ، كان بتينو ريكاسولى من الأشراف الأحرار الذين أسسوا جمعية جورج فيس وتزعموا حركة الدستور فى طوسكانه سنة ١٨٤٧ — ١٨٤٨ إلى أن تسلم زمام الحـكم الدموقراطيون ؛ وأصبح منذ سنة ١٨٥٦ شديد التحزب للوحدة مؤمناً بأن إيطاليه سوف تنال حريتها بيدها ؛ وكان يكره الاعتماد على سياسة الأجنبى والاستعانة به ومع أنه لم يرتح للحلف الافرنسى إلا أنه اعتزم أن يجعل طوسكانه مثلا فى الضبط والتضحية فى سبيل الوحدة إلا أنه لم يكن يرغب قط فى أن تصبح إيطاليه الجديدة بيمونته مكبره ، ولم يوافق على أن تتخلى طوسكانه عن حضارتها القديمة ومؤسساتها الإنسانية . وكان ريكاسولى يمت إلى أسرة عريقة فى زعامتها أوتوقراطياً بكل معنى الـكلمة وجريئاً قوى الاعتداد بنفسه وكان ملاكا خشن الطباع نشيطاً بعامل مزارعيه بقسوة شديدة فى سبيل

تمدينهم وإغنائهم وكان يأنف من الانحناء أمام الملك أو الشعب ؛ أما من حيث العقيدة السياسية فكان دموقراطياً صادقاً يكره البلاطات كره الجمهوريين لها ويحتقر الاكليروس احتقاراً ويدعو إلى أن تخضع الكنيسة للدولة ويمقت البلاط البابوى أشد المقت .

وحالما بت فى معاهدة فيلا فرنكه أبرقت حكومة تورينو إلى مندوبيها فى بولونيه وفلورنسه ومودينه وبارمه طالبة إليهم أن يتركوا مناصبهم وأن يعودوا ، غير أن كافور قد عقد النية على أن لا يتخلى عن مناصبه (كان يتولى إذ ذاك عدة وزارات) قبل أن يبذل آخر جهد لإنقاذ مشروعه فأبرق لفارينا (السلاح والمال) وأوعز إلى دازجليو بأن يستمر على عمله من دون أن يهتم بمعاهدة فيلافرنكه وأوصى ريكاسولى بأن يبقى فى منصبه وأن يدعو إلى عقد مجلس تمثيلى ، وحثهم الملك على أن يكونوا أهل مضاء وعزيمة . وكان المندوبون من الرجال الذين خلقوا لاقتحام العقبات وتذليل المصاعب فانسحب بون كومبانى وترك منصبه لريكاسولى رجل الساعة . أما دازجليو فرفض العودة قبل أن يقيم حكومة مستقرة وقبل أن يجهز قوة من المتطوعين لحماية الحدود ضد الجنود السويسريين فى أوميريه ، أما لا فارينا فقد ذهب إلى مودينه بلا جنود ولا مال تاركا مهمته التمثيلية ليصبح فى اليوم التالى دكتاتوراً على مودينه أولا وعلى بارمه ثانياً ، وقد قال « سأموت قبل أن أطرد » ، وأرق إلى ريكاسولى يقول « أنا صاحب الشعب . بالاتحاد فى العمل

تنـال الظفر وإذا اقتضت الأمور الجرأة فأنالها » ، ولو تخلى المندوبون عن مناصبهم لا تقطع الرجاء فى ايطاليه الوسطى ؛ وكان الشعب يسير وراءهم كالبناء المرصوص حتى أن لافارينا قال : « إن إيطاليه لم توقع على معاهدة فيلا فرنـكه » . ولم يحدث أى اختلاف فى الرأى بين الأحرار والمحافظين فى موضوع المعاهدة واستنكارها ؛ فبينما كان ولفى الديموقراطى وصاحب المصرف فى فلورنسه يجهز حرساً قومياً راح ريد ولفى الذى ظل إلى تلك الساعة متردداً يطالب باستئناف القتـال ؛ وهكذا لم يكن فى إيطاليه الا شعب مقدام يقوده رجال لا ترهبهم المخاطر قد صمموا على أن لا يتركوا الميدان .

وكانت وزارة تورينو اذ ذاك فاقدة الشجاعة تعوزها العقيدة والجرأة ، قد ارتضت أن تتخلى عن الأهداف التى جاهد الشعب لبلوغها ، وحدت الدويلات الأربع صفوفها حالا للدفاع عن نفسها ولا سيما لأن جنود البابا كانوا على أهبة اجتياز الرومانى من حين لآخر وكان محتملا أن يعاونهم مدد من نابولى وأسبانيه كما أن دوق مودينه قد يستطيع التقدم من فنيسيه ثم يجتاز نهر بو ويهدد فلورنسه ، وكان ثمانية آلاف من المتطوعين فى لاكانوليكه على حدود أوميريه . وقد استبق لافارينا بالاتفاق مع ريكاسولى القوات الطوسكانية التى عادت من ميدان القتال لتقوم بحراسة خط بو . وبايماز من دازجليو دعا إلى إقامة حلف عسكرى بين الدويلات

الأربع وتجنيد جيش لاتقل قوته عن خمسة وعشرين ألفاً ، وقد تم التحالف بين مودينه وطوسكانه والرومانى ثم انضم إلى هذا الحلف أخيراً بارمه . وأوفدت حكومة تورينو بعد تردد طويل الجنرال (فانتى) أقدر قادة بيمونته لتنظيم جيش الحلف وجعلت غاريبالدى معاوناً له وبذلك أصبحت إيطاليه الوسطى فى مأمن من الاستيلاء عليها . ورأى نابليون استحالة عودة الأمور إلى حالتها السابقة من دون استخدام السلاح كما أدرك أن طوسكانه نفسها لا ترغب فى عودة الدوق الكبير إليها ، وقد رفض الإمبراطور فى أول الأمر كل تدخل أجنبى فى شؤون إيطاليه وفرح جداً بالحصول على حجة تساعده على التخلص من الوعد الذى أعطاه للنمسه وارتأى عقد مؤتمر من الدول المعظمة فيحتمي وراء حكمه ويتخلص من عهوده المتناقضة واستند إلى احتجاج رسّل الشديد وأعلن أنه لا يوافق على تدخل النمسه فى شؤون طوسكانه والرومانى . وترك فى لمبارديه خمسين ألفاً من جنوده وأيقن أن التهديد يكفى لإيقاف النمسة عند حدها وبعد أن اطمأنت حكومات الوسط إلى نيات الإمبراطور شعرت بأن الثبات والشجاعة وحدها الكفيلان ببلوغ آمالها وما دام الإمبراطور يرفض أن يحميها وما دامت بمعزل عن تدخل النمسة فإنها أصبحت قابضة على مصيرها بيدها ، وقررت قبل ذلك دعوة المجالس التمثيلية فى كل من الدوبلات وجرى انتخاب عام لهذه المجالس ، فاز الأحرار فيها فى جميع

الأنحاء وقد قررت هذه المجالس بالاجماع سقوط الحكومات القديمة وإلحاق الدويلات الجديدة بمملكة فيكتور عمانتيل . وأمام هذا الاجماع الرائع تلاشت النعرات الحزبية وأظهرت إيطاليه الوسطى من التساند ما جلب إعجاب أوربا .

فلم يبق الآن أن نرقب ماتتخذه حكومة بيمونته من اجراءات وتدابير وكان معلوما أن وزارة رتازى لم تؤلف إلا لمدة موقتة ريثما يعود كافور للحكم وكانت مهمة هذه الوزارة احترام أحكام معاهدة فيلاّ فرنكه والأخذ بتعليمات الامبراطور إلى حد ما ، ومهما كانت الفكرة البيمونتية الضيقة الحدود فان رئيسها رتازى لم يكن يخلو من بعض إيمان بالوحدة ؛ فلم يكن فى مقدور هذه الوزارة أن تتخلى تماماً عن القوميين . وكان الملك لا يزال على اتصال ودى بغاريبالدى مما دل على أنه يرغب فى استخدامه عند اللمات ويظهر أن مخاوفه بشأن ممتلكات البابا قد زالت حين لمس شدة الشعور الساخط الذى ولدته معاهدة فيلاّفرنكه ، أما وزراؤه فكانوا لا يعبأون بلعنات البابا وإنما كانوا لا يجرؤون على إغضاب الامبراطور ويدركون صعوبة التخلص من هذا الحليف الإفرنسى الذى غل إرادتهم والذى سيطالب فى حالة انضمام إيطاليه الوسطى إلى بيمونته بصافويه تعويضاً له ، يتهدد بيمونته ويجعلها وجهاً لوجه أمام النمسه إذا ماغضب الامبراطور وسحب جنوده وجماعته وفسح المجال لتدخل النمسه . ومع أن رتازى كان راضياً بالتخلى

عن صافويه إذا استطاع إنقاذ نيس إلا أن زملاءه لم يجرؤوا على الاضطلاع بهذا العبء ومواجهة ما سيولده من التذمر العام إذ هم نحوا بمهد الأسرة المالكة وبوطن غاريبالدى ؛ وقد رفضوا فى أول الأمر الموافقة على مبدأ الاتحاد آملين أن يظفروا بموافقة الدول الأوربية فى المؤتمر المنوى عقده على قرار الدويلات بشأن الانضمام إلى بيمونته وقبل أن تصل وفود الدويلات الأربع إلى تورينو رأى الوزراء أن يجسوا نبض نابليون .

وكانت سياسة الإمبراطور تقضى بمعارضة بيمونته فى ضم الرومانى وطوسكانه إليها لا خوفاً من استياء الكاثوليك الافرنسيين فحسب ؛ وإنما كانت سياسة فرنسه التقليدية تعارض تأسيس مملكة إيطالية قوية كى لا تنضم يوماً ما إلى حلف ضد فرنسه . وكان الإمبراطور فى الوقت ذاته يأمل فى إقناع البابا بيوس بمنح الحكم الذاتى إلى الرومانى على أن يحتفظ البابا بسيادته عليها وبذلك يرضى القوميين ثم إنه كان يعارض كل المعارضة فى إلحاق طوسكانه بيمونته لعلمه بأن اتساع مملكة فيكتور عمانوئيل إلى ماوراء جبال الأبنين سيؤدى عاجلاً أو آجلا إلى وحدة إيطالية وبذلك تتعقد القضية الرومانية وتزداد خطورة على أن سير الأمور كان يتوقف إلى حد بعيد على موقف انجلترة وعلى تصرف وتدبير الطليان أنفسهم . وقد تمسك الإمبراطور الآن بمشروعه الاتحادى لدفع

احتمال الوحدة ، والانضمام . ولما وردت إليه رسالة تورينو تستفتيه رأيه فى الانضمام عارض المشروع فوراً ؛ فلما جاء وفد طوسكانه فى ٣ أيلول إلى بيمونته قررت الحكومة عدم الموافقة على الانضمام وطلبت إلى الملك أن يتهرب فى جوابه غير أن الملك فى محادثة خصوصية مع الوفود شجعهم على المضى فى طريقهم كأنما الوحدة أمر لاريب فيه .

الفصل الثامن والعشرون

انضمام الوسط

ايلول ١٨٥٩ : نيسان ١٨٦٠

وطبيعى ألا ترتاح إيطاليا الوسطى إلى جواب الملك ولم تقبل به إلا بعد تأكيد من الملك ووعد من كافور بأن الوقت لا يساعد على العمل أكثر من ذلك ، وكان على حكومة تورينو أن تنظر بعين الاعتبار الصعوبات السياسية التى تواجهها وأن تحول دون قطع صلاتها بالامبراطور ولكن ريكاسولى وفارينى استطاعا أن يهملا تعليماتها من دون خوف وأن يفسرا حديث الملك تفسيراً بعيد المدى وأن يصرحا بأن فكتور عمانوئيل أصبح ملكا على طوسكانه واستناداً إلى رضائه الخاص ، وقد بلغ جيش الحلف ذلك الحين خمسة وأربعين ألف جندى وبرهنت طوسكانه عن تحليها بصفات الصبر والثبات الفائقة ، ولم تجد جميع الدسائس التى حاكها أنصار الامراء المخلوعين ، وسارت حكومتا ريكاسولى وفارينى بلا عائق وأصبح ريكاسولى دكتاتوراً بالفعل وقد تملك قلوب الشعب بثباته وصراحته وامتناعه عن الأخذ بسياسة التستر والمراوغة ، وقام فارينى بالإصلاحات فى مودينة وبارمه فى همة ونشاط

عظيمين وقد طهرا الإدارة من مفاسدها وطردا اليسوعيين .
أما فى بولونية فدخلف رواز جليو (سيبريانى) قائد ثورة ليفورنه سنة ١٨٤٨ .

وكانت سياسة فاريني ترمى إلى جعل دويلات الوسط خاضعة إلى حد ما لحكومة مشتركة وجعل قوانينها وقوانين بيمونته واحدة حتى إذا ما استلم فيكتور عمانوئيل زمام الحكم وجد أن الاندماج بين الأيالات القديمة والجديدة قد تم فعلا ، وقد ارتأى أن يأخذ الحلف العسكرى الموجود بسياسة دولة واحدة من أعضائه فيدل ذلك على تضامن الحكومات الأربع ويكون حائلا دون اختلافها وذلك من دون أن تلغى الحكومات الموجودة . وقد أيدت حكومة بولونية هذا المشروع أما ريكاسولى فاعترض عليه خشية أن يشجع ذلك أنصار وجود مملكة فى إيطالية الوسطى ، ولاح له كما لاح لكافور أن الحلف المذكور يكون بذلك عثرة فى سبيل الوحدة مع بيمونته بدلا من مساعدتها ، أما فى طوسكانه فحمل الدموقراطيون مع بعض أنصار الوزارة وبتشجيع من رتازى على جعل المؤسسات المحلية على طراز المؤسسات البيمونتية ، وقام ريكاسولى بأعمال تقدمية عظيمة فى الصناعة والإدارة ، وسعى ريدولفى لجعل فلورنسة مركزاً للثقافة والفنون فى المملكة الجديدة . وكانت الوحدة بنظر ريكاسولى لا تطلب قبول القوانين والمؤسسات البيمونتية ، ومع ذلك فقد وافق على قبول نظام العملة والنقد

البيمونتى وعلى إلغاء الجمارك وجوازات السفر وتأسيس اتحاد بريدى على أن هذه الأمور كلها كانت بنظر ريكاسولى قليلة الأهمية إذا قورنت بقضية الانضمام . ومهما كان التفاوت فى الآراء بين ريكاسولى وفارينى فإنهما كانا على اتفاق تام فى رفض الخضوع لأى ضغط أجنبى رفضاً باتاً ولم يكن المرء يحتاج إلى كثير من الفراسة حتى يدرك بأن الإمبراطور سيعود فيلجأ إليهما .

وقد تعدلت آراء الإمبراطور بشأن طوسكانه بسرعة فأرسل فى نهاية ايلول رسالة يلح فيها على الحكومات الأربع بصيانة استقلالها بثبات وفى اليوم التالى لورود هذه الرسالة تفاهمت الحكومات المذكورة فيما بينها على دعوة المجالس التمثيلية وتعيين الأمير (كايجنانو) بن عم الملك فيكتور عمانوئيل وصياً إذا لم يوافق الملك على أن يتولى الملك بصورة مباشرة ، وقد رفع العلم البيمونتى فوق سراى فيكيو فى فلورنسة فى اليوم الأخير من ايلول ، ولكن الإمبراطور كان بعيداً كل البعد عن الموافقة على الانضمام ولم تكن رسالته تدل إلا على مزاجه المتبدل فكان لا يزال يأمل بأنه يستطيع اقناع البابا بمنح الحكم الذاتى للرومانى وتعيين فيكتور عمانوئيل نائباً عنه ، كما أنه وعد بإعطاء بارمه لبيمونته ، ومع أنه كرر قوله بأنه يحمى إيطاليه ضد أى تدخل نمسوى فقد قال للوفد الفلورنسى بأن على مدينتهم أن تقبل ابن فرديناند فأجابه الوفد بأن طوسكانه لن ترضى بأمراء اللورين ، وتوعده بان الطليان إذا فقدوا ثقتهم فى نياته

سوف يعملون على أن يمتد لهيب الثورة إلى نابولى وصقلية ، وكان لهذا الوعيد مفعوله الحسن بيد أن الإمبراطور كان ناقماً على الانتقادات المرة التى كانت صحافة تورينو توجهها اليه وحانقاً على رتازى لضغطه على جرائد صافوية الانفصالية على أنه بعد مرور بضعة أيام كتب للملك كتاباً مفتوحاً أصر فيه بشدة على آرائه الاتحادية مقترحاً مرة أخرى عليه الانضمام وقال فيه اذا قبلت بيمونته مرة أخرى شروطه فسيمنح فنيسيه الحكم الذاتى وسيجبر النمسة على جعل (ما نتويه وبشييرا) من قلاع الاتحاد الإيطالى .

وأصبحت وزارة تورينو التى كانت تهب تارة مع رياح باريس وأخرى مع فلورنسه أى ذات اليمين وذات الشمال ، موضع مقت العموم ، وكان رتازى الذى خشى أن يتهم بالخيانة مستعداً للموافقة على وصاية الأمير (كاريجنانو) ولولا أن زملاءه كانوا لا يزالون يتخوفون من قطع العلاقات مع فرنسة ، وعليه فإن الوزارة أجابت الإمبراطور بانها ترفض فكرة الاتحاد وتركت قضية الانضمام إلى الظروف دون أن تحرك بشأنه ساكنا ، وكان مازينى قد عاد إلى فلورنسه بعد معاهدة فيلا فرنكه حيث ساعده ريكاسولى على الإقامة فيها بشرط أن يعده بأن لا يظهر أمام الناس ، وقد وافق مازينى على تعضيد فيكتور عمانوئيل بعد أن أبدى تحفظاته المعلومة إذا اقتنع بأن إعلان الجمهورية فى مثل تلك الساعة يضعف شأن الحزب القومى من جهة ولا يفيد حزبه من جهة أخرى ،

ثم إنه عظم فى نفسه خطر قيام مملكة نابليونه فى — الوسط ، وقد أوفد كريسى إلى صقلية لإثارة الثورة فيها وألح على استرداد بيروزه الأمر الذى (حسبما كان يعتقده) ، من شأنه أن يمد لهيب الثورة إلى أومبرية والمارك حتى ايالة بيروزه وبذلك يجعل آل بوربون بين نارين ، فإذا تمت الوحدة الإيطالية قبل اجتماع المؤتمر فلا بد للمؤتمر من أن يقبل بالأمر الواقع ، وبث لا فارينا بالاشتراك مع الجمعية القومية ومن دون الاتصال بمازينى لجان الجمعية فى جميع أنحاء الرومانى ، فاجتازت هذه اللجان الحدود وتوغلت فى أومبريه والمارك وأخذت تجمع السلاح وتعد الناس للثورة فى الأيالات المضطهدة حتى أصبح الانفجار على وشك الوقوع ، ولو ثار أهل أومبرية لصعب منع الوطنيين من أهل الرومانى عن الإسراع إلى نجدتهم ولكان قد حالوا دون توغل جنود البابا فى الرومانى ، واشتدت نفرة الناس من سياسة تورينو الهوجاء ورغبتهم فى إجبارها على السير حتى أن أناساً لم تكن لهم أى علاقة بالدموقراطية أخذوا ينجرفون مع التيار ، وقد أرسل فارينى وفانتى من قطعات طوسكانة ومودينة إلى الحدود من دون علم ريكاسولى ووضعاها تحت قيادة غاريبالدى وأمراه أن يصد كل هجوم وأن يطارد المهاجمين إلى ما وراء الحدود . وإذا ما نشبت ثورة فى المارك وأومبرية فليسارع إلى انجادها ، وافتتح غاريبالدى اكتتاباً لشراء مليون بندقية واستطاع ببياناته المثيرة أن يجعل الرأى العام فى هياج محموم ، وفزع ريكاسولى من

كل هذا وخشى من معارضته الرأى العام الكاثوليكى فى أوربا لفكرة الانضمام وإجبار الامبراطور على سحب وعده بصيانة الاستقلال الإيطالى . وبلغ الذعر فى الوزارة البيموتيـة التى تأثرت بالرسالات الواردة من باريس حتى فكرت معه فى فسخ الحلف العسكرى وتسريح نصف الجنود ، ولكن ريكا سولى عارض هـذا المشروع الطائش معارضة شديدة وحال دون تنفيذه ثم نزل الملك إلى الميدان واستدعى غاريبالدى إلى تورينو فى ٢٩ — تشرين أول وأجبر الجنرال فانتى على الانسحاب من منصبه ، ووصل غاريبالدى إلى تورينو فلم يشأ الملك أن يضغط على قائده الجزوع غاريبالدى الذى امتنع من الوعد بعدم اجتياز حدود أومبريه بعد أن تعهد بمساعدة الثورة إذا ما نشبت ، ولما عاد إلى ريمنى توقع أن يتسلم القيادة العامة لمناسبة استقالة فانتى وراح يشرع فى استعداداته لاجتياز الحدود ، وأخذ رجاله يحرضون الناس على الثورة فى المارك ، وكان المجلس التمثيلى فى بولونيه قد ألجأ سبيريمانى على الانسحاب ، وأناط الدكتاتورية بفاريني الذى وحد بين الرومانى والدوقيتين بعنوان اميليا ، وطلب إلى فانتى بأن يعود إلى منصبه ثم أخذت الاعتراضات والشكاوى ترد من جميع بلاطات أوربا ضد ما يجرى فى إيطاليه الوسطى ، فاستعمل كافور جميع نفوذه فى معارضة مشروع الثورة فى أومبريه والمارك . ولم يظهر أهل أومبريه استعدادهم للثورة ولذلك قرر

فانتى وفاربنى منع اجتياز الحدود واستدعيا غاريبالدى إلى بولونيه وأخذا منه وعداً بالكف عن مشروعه غير أن خصومه الألداء زوروا برقية تخبره بنشوب الثورة فأمر غاريبالدى على أثر ورود البرقية جنوده باجتياز الحدود ، ولكن فانتى أسرع فأصدر إليهم أمراً مناقضاً لأمر غاريبالدى فامتثل الجنود الأمر الأخير ، ومنى غاريبالدى بخيبة مرة شديدة فعاد على جناح السرعة إلى بولونية وأصر على فانتى وفاربنى بأن يستقيلا فأجاباه بالرفض البات ، ولم يكن غاريبالدى يستطيع أن يجبرهما على الاستقالة وبعد مرور يومين على هذا الحادث دعى إلى تورينو حيث أقنعه الملك بترك القيادة والعودة إلى حياته الخاصة . والحقيقة أنه لو تقدم غاريبالدى برجاله لوجد أمامه قوات روما ونابولى المتحدة ، ولو أقدمت النمسه على التدخل لوجد نفسه بين نارين لا يستطيع أن يتملص منهما ، ومع ذلك فإن حادثة غاريبالدى لم تكن سوى أمر ثانوى كما عبر عنها ريكاسولى بيد أنها دلت على مقدار ما تتعرض له الحركة القومية من الأخطار بسبب الفوضى وفقدان التنظيم .

وكان استمرار الحالة بصورة وقتية قد يولد أخطاراً جمة واستطاع الحزب المتطرف أن يرفع رأسه ؛ أضف إلى ذلك أن قتل أنفيتى والتشهير به من قبل الدهماء وتساهل فاربنى فى معاقبة المجرمين قد حرج الموقف ودل على فقدان الأمن . وقد دبرت مؤآمرة قليلة الشأن فى طوسكانه وكانت جنود البابا على أهبة

الهجوم فى كل لحظة ، وكان الأمر فى نظر ريكاسولى هو إضعاف شأن حكومة تورينو بتنفيذ مشروع الشهر الماضى القاضى بتعيين الأمير كاريجنانيو وصياً ، وقد رأى أن حادثة غاريبالدى قد هيأت له الفرصة وأبرق له مندوبه فى لندن يخبره بأن وزير خارجية إنجلتره يميل إلى قبول مشروع الوصاية ، وأن الإمبراطور يرغب قبل كل شىء فى المحالفة مع انجلتره ولذلك فإنه سيضطر إلى الكف عن معارضته واتضح أن وزير الخارجية الانجليزية قد تحدث عن ميله لفكرة الوصاية إلا أن بالمرستون كان يرى أن الأمر لا يزال مبتسراً وأن الإمبراطور لا يزال يعارضه ، أما ريكاسولى وفارينى فعقدا النية على العمل رغم كل شىء ، فاجتمعت المجالس الأربعة فى ٢ — تشرين الثانى ، وانتخبت الوصى . كانت وزارة بيمونتية قد بذلت كل جهدها لتحول دون هذا الانتخاب ، ولما فشلت أصرت على الحصول على موافقة الإمبراطور ولكن الإمبراطور أرسل رسالة قارصة صرح فيها بأنه إذا رضى الملك بوصاية كاريجنانو فلن ينعقد المؤتمر وتتحمل بيمونته وحدها تبعة إغضابها للنمسة . وكانت النمسه قد أنذرت بأنها تعد دخول الجند البيمونتى فى الدويلات الأربع عملا عدائياً ، ولعل حكومة تورينو كانت تأبى الخضوع لو اطمأنت إلى معاهدة انجلتره إياها ولما لم تجد تشجيعاً منها عاد الوزراء حسب عادتهم إلى المماطلة والتسويف . وبتحريض من كافور قرروا بأن يرفض كاريجنانو الوصاية وينتدب بون كومبانى

حاكما عاماً على اميليه وطوسكانه ثم أخبروا الامبراطور بقرارهم هذا وجعلوه أمام أمر واقع فرضى عن طيبة خاطر بهذا الحل ؛ أما ريكاسولى فلم يقبل بهذا الحل وقال « الأمير أو لا شيء » وكان لا يريد أن يتخلى عن سلطته ولا يريد أن يقيد يده التى اعتقد أنه يصون الأمن بها ، ولم يوافق على تعيين بون كومبانى إلا بشرط وهو أن يصبح كومبانى نائباً للوصى ، وأخيراً استطاع الملك أن يوفق بين الفكرتين بتعيينه بون كومبانى حاكما عاماً على الدولتين (اميليه وطوسكانه) ويشرف على إدارتهما إشرافاً رسمياً .

ولكن هذا الحل لم يؤد إلى الغاية المقصودة من انتخاب الوصى ، فبقيت الأمور على ما كانت عليه ، غير أن الامبراطور أخذ يقتنع شيئاً فشيئاً بعدم إمكان عودة الأمراء إلى عروشهم وأن الاتحاد لا يمكن تطبيقه وأن القوة وحدها هى التى تمنع دويلات الوسط من الانضمام . وكانت النمسه على الرغم من إنذارها ضعيفة لا تستطيع التدخل ، ولو فرضنا أنها كانت قوية تستطيع أن تدعم قولها بالعمل فإن الامبراطور لا يرضى بأن تصبح نافذة الكلمة مسيطرة على بيمونتية ؛ ثم أيقن أن عدم الاستقرار يؤدى إلى اندلاع النار وامتداد حركة الوحدة إلى الجنوب كما سبق فأخبره الوفد الطوسكانى بأن إيطاليه تصبح بؤرة ثورية قد تخلق أورسينى آخر ، وتنتقل منها روح الثورة إلى فرنسه . وكان

السلم قد عقد فى زوريخ فى ١٢ — تشرين الثانى فجعل الامبراطور طليق اليد تجاه النمسه ، فالاستفتاء العام فى إيطاليه إذا جاء مؤيداً للانضمام هو الوسيلة الممكنة ، وإذا ما ألحقت صافويه ونيس بفرنسه جزاء موقفه فسيصبح قوياً بحيث لا يعبأ بالاكليريكيين فضلا عن أن الرومانى تدخل بذلك فى حوزة حكومة قوية حرة تصونها من الفوضى .

وكان لابد لهذا التبدل فى موقف الامبراطور من تبدل فى سياسته أيضاً ، فقد كان حتى ذلك التاريخ يبذل جهده لإقناع انكلتره بتأمين عقد المؤتمر غير أن المؤتمر قد يكون ضربة قاضية على خططه الجديدة لأنه لا يستطيع أن يصرح فيه نياته ومطامحه فى صافويه ونيس . أضف إلى ذلك أنه كان يعلم بأن الدول الكاثوليكية لن ترضى عن تقليل ممتلكات البابا فعليه إذن أن يحول دون انعقاد المؤتمر والاستناد إلى محالفته انجلتره فى تنفيذ سياسته ضد البابا . وكان حينذاك قادراً على إخفاء مقاصده بشأن صافويه ونيس ، فجس نبض إنجلتره لمعرفة فيما إذا كانت توافق معه على أن يصبح دوق جنوه ابن فيكتور عمانوئيل الصغير وصياً على طوسكانه والرومانى باسم أبيه . وكانت وزارة بالمرستون تستهدف فى سياستها الإيطالية ثلاث نقاط : ١ — تحقيق الآمال الإيطالية بطرد النمسة من إيطالية ، ٢ — القضاء على النفوذ الافرنسى فى إيطالية ، ٣ — إضعاف سلطة البابا الزمنية وإزالتها . ولما وافق

وزير الخارجية الإنجليزية على عقد المؤتمر كان قد اشترط قبل انعقاده أن تقلع الدول عن فكرة التدخل المسلح وألح على ذلك ، ولكن النمسة أجابت بصراحة أنها ترغب فى إعادة الأمور فى إيطالية إلى حالتها وظهر أن روسية وبروسية تحذوان حذوها فتشجع نابليون فى عزمه على إحباط مشروع عقد المؤتمر .

وصدرت فى باريس قبل عيد الميلاد رسالة عنوانها (البابا والمؤتمر) ، وكان محور البحث فيها يدور حول ضرورة تصغير ممتلكات البابا مبرهنة على أنه كلما صغرت ممتلكات البابا كبرت سلطته الروحية ، ومع أن الرسالة لم تتعرض للبحث عن المارك وأومبرية فإنها اقترحت بأن تقتصر أوربا على حمايتها لروما ولا كومماركة . وتلا ذلك أن أبعد الإمبراطور وزير خارجيته والويسكى وعين نوفنيل عدو الأكليريكيين ونصير الحلف الانجليزى . وسرعان ما بلغت السياسة الجديدة هدفها الأول إذ استوضحت حكومة النمسة الحكومة الإفرنسية فيما إذا كانت فرنسة تقف فى المؤتمر موقف المدافع عن المبادئ الواردة فى الرسالة فلما تلقت جوابا إيجابيا انسحبت من المؤتمر. وسارت الأمور فى إيطالية وفى باريس سيراً سريعا فبعد أن رفضت النمسة الاشتراك فى المؤتمر بخمسة عشر يوما تقلد كافور رئاسة الوزراء ، ويجدر بنا هنا أن نتحدث عن المناورات السياسية المحلية التى انتهت بعودة كافور إلى الحكم فنقول لقد كان رتازى يعلم بأن وزارته سوف تسقط

حالما يجتمع المجلس النيابى ولا سيما لأن أصدقاء كافور قد لموا صفوفهم وأخذوا يهاجمون الوزارة ليضمنوا عودته إلى الحكم ، وكان الملك لا يزال يحقد عليه بسبب التفريق بينه وبين خليلته ولم ينس الكلام القارص الذى وجهه إليه كافور على أثر معاهدة فيلا فرنكة ، ولعله اعتقد بأنه لن يقتصر فى المستقبل إلى دعوة وزيره العظيم إلى الحكم فقبل بروفيو وقاليريو فى بلاطه فأخذا مع أنصارهما من حزب اليسار يسعون للحيلولة دون عودة كافور إلى استلام زمام الحكم . وفى بداية شهر كانون الأول نظموا صفوفهم باسم اللجنة الحرة ، وأخذوا يدسون الدسائس ، ويحيكون المؤامرات ضد كافور ، الأمر الذى أدى بأصدقاء كافور فى المجلس أن يعملوا لمكافحة هذه المؤامرة بتأليف حزب سموه (الاتحاد الحر) ونجح هذا الحزب وامتد نفوذه امتداداً أفزع الملك وجعله يفكر مضطراً فى الموافقة على إيفاد كافور إلى المؤتمر المنوى عقده بعد أن تردد طويلا فى إيفاده اعتقاداً من الوزراء بأن نجاحه فى المؤتمر يقوى مركزه فى البلاط . وقد سعى الدساسون إلى جلب غاريبالدى إلى جانبهم لاستغلال سمعته ، وكان هذا قد ترك الرومانى حانقاً مكسور الخاطر رافضاً الترضية التى قدمها له الملك . ولا شك فى أن الملك ورتازى قد لعبا دوراً فى هذه المناورة وشجعا غاريبالدى على سياسته المتطرفة ، وربما على هجومه على أومبرية ، ولعل الملك كان جاداً ، أما رتازى فقد خدع

غاريبالدى ليستغله لمصلحة حزبه الخاصة . وطلب غاريبالدى أن تبدل اللجنة الحرة اسمها وأن تتسمى باسم (الأمة المسلحة) أملا منه بالقدرة على جمع المال لشراء المليون بندقية ، وقد وافقته اللجنة على تكليفه وعين رئيساً لها ولكن هذه الحركة المستهينة لم يلق تشجيعاً لا فى مجلس الأمة ولا فى البلاد ، حتى أسرعت الحكومة إلى التنصل منها ، فتأثر غاريبالدى وغضب من هذا العمل وأمر بإلغاء اللجنة .

وأما فى إيطاليه الوسطى فأخذ الهياج والقلق ينذران بالخطر فى إيطاليه الوسطى وأيقن أعضاء الاتحاد الحر وجميع القوميين فى مجلس الأمة على اختلاف نزعاتهم لما أدرك دازجليو بأنه لا يمكن القيام بأى عمل مادام رتازى على رأس الوزارة ؛ وأمام هذا الإجماع وضغط الرأى العام لم ير هذا بداً من الاستقالة . فتولى كافور فى ١٦ كانون الثانى رئاسة الوزراء ففرح الناس لهذه النهاية وتنفسوا الصعداء . استطاع كافور أن يستفيد أقصى الاستفادة من الظروف التى مهدت له الطريق وأعادته إلى الحكم . وقد وعد بأن تكون سياسته سياسة إيطالية إلى أقصى الحدود . فأخذ يستهدف فى عمله تحقيق الوحدة بمعناها الأوسع ، واعتقد أنه إذا ما انضمت طوسكانه والرومانى إلى بيمونيه فإن الثورة كفيلة بعد ذلك بضم نابولى وصقلية إلى المملكة . أما أومبرية والمارك فبعد أن تصبح إيطاليه الحرة الجديدة فى جانبهما فستتخليان عن البابا ثم يأتى بعد

ذلك اليوم الذى تستجمع الأمة فيه كل قواتها للاستيلاء على القلاع الأربع واحتلال فينسيه . ومع أن كافور كان يشجع أنصار الوحدة الصقليين سراً فإنه كان فى الحين ذاته حريصاً على عدم وقوع حوادث مربكة فى الجزيرة ، وإذا اقتضت الضرورة بأن ينتظر بضع سنوات قبل أن يقدم على فتح إيطاليه الجنوبية ، ولكن كان هدفه الأول الاستيلاء على أميلية وطوسكانه ، وظل فى هذا الشأن صلب العود لايلين ولا يتراجع أملا أن يرى نواب إيطاليه الوسطى فى طليعة نواب مجلس الأمة حين ينعقد . وجاء تعيين فانتى وزيراً للحربية وكان لا يزال يقود جيش الحلف مظهر عملياً ودليلا فعلياً على الوحدة . وكان كافور يدرك أن التخلى عن نيس وصافويه أمر لابد منه فى سبيل بلوغ الغاية المثلى وهى الوحدة الإيطالية ، وقد استعد هو وفيكتور عمانوئيل لاحتمال هذه التضحية ومواجهة سخط الرأى العام الذى أفزعه زملاء رتازى . وكان كافور يتألم كثيراً لهذه الضرورة القاهرة ، ولكنه كان قانعاً بأن تقديم هاتين الأيالتين الصغيرتين للامبراطور فى حالة إصراره هو الذى سيؤدى إلى حماية إيطاليه الوسطى ، وكان يعلم جيداً بأن هذا العمل قد يقضى على سمعته لدى الشعب غير أنه كان على استعداد بتضحية نفسه على مذبح النفع العام ، وأن يبيع فى سبيل وحدة إيطالية كل شىء الأصدقاء والضمير والسمعة الحسنة ، وأن يتقبل كل التضحيات التى تنيله آماله . وقد عقد

النية على أن يكسب الأيالات الوسطى مهما كلفه الأمر ، وكان يرغب فى أن يكسبها برضاء الامبراطور إن أمكن لأن وقوف بيمونتيه وحدها فى وجه النمسه كان خطراً عظيماً عليها . وكانت الحكومة الإنجليزية قد اقترحت إيجاد تفاهم افرنسى انجليزى لتنظيم القضية الإيطالية ، وكان بالمرستون ورسل يذهبان إلى أبعد من ذلك ويميلان إلى عقد حلف بين الدولتين للدفاع عن المصالح الإيطالية ، غير أن ملك إنجلتره عارض هذا المشروع . وكان جلادستون الوزير الوحيد الذى حبذه بين أعضاء الوزارة ، وكانت الأمور تدل على أن إنجلتره لا تعارض فى انضمام الأيالات إلى بيمونتيه إذا قررت المواد الأربع التى تؤلف دعائم السياسة الإنجليزية بالنسبة للقضية الإيطالية . ولما اطلع كافور على هذه الأخبار السارة رأى أن العقبات زالت وأن الطريق ممهدة له .

ولكن بعد أن تم التفاهم الإفرنسى الإنجليزى حدث ماقوضه ، ذلك أن السياسة الإنجليزية الخارجية كانت تحذر من فرنسه وتترقب سياستها ، وكان حذرها من السياسة الإفرنسية فى إيطاليه أقوى من ميلها وصداقتها لإيطاليه . وقد استطاع الإمبراطور بادىء الأمر أن يخفى نياته نحو صافويه وأن ينجز المفاوضات بلباقة ولكن هذا السر تسرب بغتة ، وحاول كافور وتوفنيل ، وزير خارجية فرنسه ، عبثاً إخفاءه بالتكذيب الجرىء ولكن إنجلتره اعتقدت أنها خدعت فحنقت حنقاً شديداً ، وخشى

الإمبراطور أن يقع كافور فى أحضان إنجلتره فى سبيل حرصه على ضم إيطاليه الوسطى بمساعدتها وبهذا يخسر نابليون صافويه ونيس بينما كان يعتبر كسب هاتين الأيالتين أمراً جوهرياً ، ولاسيما بعد ذلك السخط الذى جلبته الرسالة والكتاب المرسل للبابا من الكاثوليك فى فرنسه ، فاعتزم أن يأخذ صافويه بأى ثمن كان حتى إنه وافق على أن تتقدم بيمونتيه فى إيطالية نحو الناحية التى تستطيع أن تصل إليها . وبينما كان يفاوض إنجلتره كان يساوم كافور ويلوح له بالحكم فى الرومانى نيابة عن البابا ، وبتأسيس دولة منفصلة فى طوسكانه والموافقة على امتلاء أمير من آل صافويه عرشها وراح يتردد بين طوسكانه أو صافويه ونيس ، وأمسى يهدد بيمونتيه بسحب القوات الإفرنسية من لمبارديه وترك البلاد تحت رحمة النمسه . وهنا تتجلى لنا الصعوبات التى كان يجابهها كافور فى توجيه دفة السياسة . وقد تباينت الحلول والوجهات فكان عليه مثلا أن يستند إلى محالفة إنجلتره بضم طوسكانه والرومانى وأن يرفض التخلى عن صافويه ونيس ، أو أنه كان يجب أن يحقق رغبات الامبراطور فارضاً أن سيادة البابا الغامضة على الرومانى لا يؤبه لها ، وأن اعتلاء دوق جنوه عرش طوسكانه وتعيين ريكاسولى وصياً إنما يعين انضمام طوسكانه فى الواقع ولكن التخلى عن فكرة الضم المطلق من شأنه يجرح الشعور القومى وأن يغضب أهل

طوسكانه وأن يساعد أنصار الحكم الذاتى على رفع رؤوسهم ، وأخيراً قرر بأن يضحى بصافويه إذا قضت الضرورة بنيس أيضاً . ووافق على إرضاء نابليون فى جميع الأمور الثانوية واجتنب فى حذر التلميح لإنجلتره فى الحرب وأعد العدة لإجراء الاستفتاء فى إيطالية الوسطى بالاقتراع العام . وكان يعلم بأن الامبراطور لن يستطيع أن يرفض حق الشعب فى الاقتراع ، ذلك لأن الاستفتاء الشعبى بالاقتراع فى فرنسه هو الذى أقعده على عرش فرنسه ، وكان إصرار كافور على إلحاق طوسكانه شديداً لا يتزحزح عنه ، وكان يعتمد فى رفضه التخلى عن طوسكانه على معاضدة إنجلتره الأدبية وعلى معاضدة بروسية إلى حد ما . وأما إذا ساءت الأمور فإنه اعتزم على مقاومة النمسه وحده بدلا من أن ينزل الراية القومية التى خفقت فى طوسكانه ، وقد حرص فائق على تنشيط حركة التسلح سراً وبسرعة ، وقدر بأن على المملكة أن تنزل إلى الميدان مائتى ألف جندى ، وعجل فى إجراء الاقتراح العام بأن استصدر إرادة ملكية فى ١ أذار يقضى بإجراء الاقتراع فى دويلات الوسط حالا ، وإذا ما جاء الاقتراع مؤيداً لفكرة الانضمام فسيعقبه تواً انتخاب النواب إلى البرلمان الإيطالى . ورأى الإمبراطور حينئذ بأن معارضة إجراء استفتاء عام لا تجدى نفعاً ، وكانت اعتراضاته الأخيرة ترمى قبل كل شىء إلى تأمين الحصول على صافويه ونيس . وقد وعد رُسل وزير الخارجية

الإنجليزية بأن يستشير الدول العظمى قبل أخذه الأيالتين (صافويه ونيس) ، وتعهد بأن يجرى فيهما استفتاء شعبى باقتراع عام . وكان أشد ما يخشى أن تبذل حكومة تورينو جهدها ليأتى الاقتراع ضد الانفصال عن بيمونتيه ولا سيما لأن كافور وعد بألا يتخلى عن الأيالتين إذا اقترعتا لبيمونتيه ، وعليه فإن الامبراطور أصر على بيمونتيه بأن توقع معاهدة سرية قبل الشروع بالاقتراع العام فى إيطالية الوسطى ، تتعهد فيها التخلى عن صافوية ونيس فلم يسع كافور أن يرفض هذا الطلب ولاسيما لأنه كان يعلم بأن المعاهدة السرية لا قيمة لها من الوجهة الدستورية ، ومع هذا فإنه أراد أن يساعد نابليون فى كفاحه للاحتفاظ بعرشه فى فرنسه ولعله شعر بأن التخلى عن الأيالتين من شأنه أن يجعل إيطالية فى حل من تعهداتها تجاه فرنسه ويجعلها مستقلة أدبياً ويمهد لها الطريق نحو إيطالية الجنوبية . وقد وقع على المعاهدة الخفية فى ١٢ — أذار بيد أن الإمبراطور طالب بمعاهدة علنية ليسكن بها الاستياء المتزايد فى فرنسه ، وأرسل مندوبه بنديتى إلى تورينو لهذه الغاية وقيل ان كافور رفض إذ ذاك التوقيع لو لم يهدده بنديتى باحتلال بولونية وفلورنسه من قبل القوات الفرنسية التى لا تزال فى لمبارديه . وكانت تلك الساعة أشق ساعة فى حياة كافور العامة إذ وقع فيها على المعاهدة العلنية فى ٢٤ — أذار وقلبه يحترق ألماً . وجاءت نتائج الاقتراع العام الذى جرى بين ١١ و ١٢ أذار فوزاً

مبيناً لفكرة الانضمام . وكانت الإرادة الملكية تقضى بأن يمنح حق الاقتراع لكل ذكر بلغ سن الرشد ، وكان على المصوت أن يختار بين الانضمام إلى بيمونتيه وبين قيام مملكة منفصلة فاقترعت دولة أميلية لفكرة الانضمام بما يكاد يكون إجماعاً ، أما فى طوسكانه فقد استطاع أنصار الحكم الذاتى أن ينالوا خمسة عشر ألف صوت ونال أنصار الانضمام (٣٨٦٠٠٠) صوت .

وقبل انقضاء خمسة عشر يوماً صدرت الإرادات الملكية بإعلان اميلية وطوسكانه جزء لا يتجزأ من المملكة الحديثة ، ثم جرت الانتخابات فى اليوم التالى واجتمع البرلمان الإيطالى فى ٢ نيسان في تورينو ، وقد تألف من النواب البيمونتيين واللمبارديين والطوسكانيين وأهل الرومانى لتدشين المملكة الجديدة التى استطاعوا بثباتهم وصبرهم تكوينها ، وبذلك زاد عدد نفوس المملكة الصغيرة من خمسة ملايين إلى أحد عشر مليوناً رغم خسارتها (٧٠٠٠٠٠) نسمة . فى صافوية ونيس وأصبحت نفوس تلك المملكة تقارب نصف عدد نفوس شبه الجزيرة . ومع أنه ظل شبح نيس يخيم على المجلس النيابى إلا أن نشوة الفوز التى ولدها النصر الباهر تغلبت على ماولده الشبح من كآبة ، حقاً لقد كانت نتيجة الانتخابات فوزاً عظيما لكافور ، وقد امتنع أكثر الإكليريكيين عن التصويت فلم يؤلفوا بعد ذلك حزباً سياسياً ؛ أما الدموقراطيون فلم يفوزوا كما كانوا يأملون والتف

خمسون نائباً حول رتازى وبهذا تأكد كافور من أن ثلثى أعضاء المجلس يسيرون وراءه بإخلاص .

لما وجدت المذاكرة بشأن التخلى عن صافويه ونيس فى المجلس ثارت عاصفة عنيفة من السخط فيه ولاح للمرء أن البرلمان قد يدشن أعمال المملكة الجديدة بإسقاط الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يدير دفتها . وحاول غاريبالدى أن يربك الموقف فى موجة من الغضب استولت عليه إلا أن المجلس — منح الثقة للحكومة وجرى الاقتراع العام فى صافويه ونيس فى ١٥ و٢٢ نيسان وجاءت نتائجه بجانب فكرة الانضمام لفرنسه ؛ بيد أن عدد الذين اشتركوا بالاقتراع لم يدل أبداً على رغبات الأهليين الحقيقية . وإذا كان أهل صافويه يميلون إلى الانضمام إلى فرنسه لأسباب عرفية واقتصادية فإن أهل نيس كانوا ضد الانفصال عن بيمونتيه . وقد اشتركوا فى حركات إيطاليه القوميه ، وكانوا إيطاليين لحماً ودماً ، وقد بذلوا جهدهم للتخلص من المصير الذى فرض عليهم . ولما جرت المذاكرة على المعاهدات فى المجلس كان غاريبالدى قد سافر إلى الجنوب وكان على وشك أن يقاتل فى صقلية فأسكتت قضية إيطالية الجنوبية كل شىء وكبحت جواب المعارضة .

الفصل التاسع والعشرون

أنصار الوحدة

كانون الثانى : آذار — ١٨٦٠

أدركت الجماعات القومية بأن العمل لما يتم ، وأن ضم إيطالية الوسطى لم يكن سوى الخطوة الأولى ، وأنه ما لم تنضم إيطالية الجنوبيـة وفنيسية وما بقى من ممتلكات البابا إلى المملكة الجديدة فلن تهدأ الأحوال ؛ وإذا هدأت فلمدة قصيرة فقط . ولم تختلف هذه الجماعات فيما بينها إلا على الوقت الذى ينبغى أن يتخذ فيـه التدبير الأول وعلى كيفية هذا التدبير ؛ فمازنى كان مقتنعا بأنه لا يمكن أن ينتظر من كافور بأن يبـدأ بالسعى فلذلك استمر على العمل الذى توقف حينما استدعى غاريبالدى إلى الرومانى وكانت خطته لا تتخلف عن سابقها وهى إعداد العدة لإيقـاد الثورة فى صقليه وأومبريه فى آن واحـد وتوجيه قوى الثورة نحو نابولى . وإذا ما بدأت الثورة فإن الرأى العـام كفيل بإجبار حكومة بيمونته على مد يد المعونة إليها . وكان كريسبى أحد زملائه الأشداء قد أسعر ثورة فى صقلية فى كانون الأول وأمال إلى جانبـه فارينى

ولعله اقنع رتازى بتقديم مساعدة الحكومة للحركة . وكان مازينى وكريسبى يسعيان لكسب غاريبالدى حتى يصبح قائدا لحركتها . أما العقلاء من الحزب المتطرف مثل مدويجى وبرتانى فكانوا يخشون أن تنتهى الحركة بالفشل كما انتهت مشاريع مازينى المشؤومة ؛ ولذلك اشترطوا بأن يتسلم غاريبالدى زمام الثورة وكانوا يرغبون من صميم قلوبهم بأن يتم التفاهم بين كافور وغاريبالدى .

أما كافور فقد اشتدت عزيمته للظفر بالوحدة وهو الذى قال بعد معاهدة فيلافرنكة « إنهم منعونى من تكوين إيطالية بالسياسة بادئا من الشمال ، فسأخلقها بالثورة بادئا من الجنوب » ، وكان أحياناً يرى بأن على الجنوب أن ينتظر وأنه يحسن بأن تبدأ الحركة أولا بالهجوم على فنيسية ، ومهما يكن الرأى فإنه عزم ؛ بكل قوته على تنفيذ منهج الوحدة بأجمعه عاجلا أو آجلا ، وقد كتب دازجليو يقول : « لقد أصبحت الوحدة منارنا » ، وكان الملك جزوعا أيضا ولم يكن أى اختلاف بين كافور ومازينى وريكاسولى وغاريبالدى والملك فيما يتعلق بضرورة السير إلى الأمام ، وإنما كانوا يختلفون فى الهدف الأول : أيكون فنيسية وممتلكات البابا ، أم الجنوب . وكانت فنيسية توشك أن تفقد رجاءها بعد معاهدة فيلافرنكة وأخذ أهلها يفرون بالآلاف مجتازين الحدود للانخراط فى سلك الجيش الإيطالى أو لتدبير المؤامرات فى مودينة أو ميلانو . ولما فازت القضية القومية فى إيطالية الوسطى تنفست الأيالة

الصعداء . وامتدت شبكة من الجمعيات السرية فى جميع أنحائها ، وقد شجع اضطهاد الحكومة النمسوية والضرائب الباهظة على الثورة فأخذ كافور يقرع آذان العالم الأوربى بالحديث عن الآلام التى تكابدها فنيسية .

وكانت الحركة قومية لا بابوية بطبيعة الحال ، ومن شأنها أن تؤدى عاجلا أو آجلا إلى انهيار السلطة الزمنية للبابا . وقد شرع كافور حملته بالقيام بالإصلاحات فى جميع الإيالات المحررة ، فاشترع فيها نظام النكاح المدنى وألغى فيها الأديرة ، ولعل الاصلاحات سارت فيها شوطا بعيدا لم تبلغه بيمونته ، فطرد اليسوعيون من جميع الأنحاء وأصبحت أملاكهم ملكا للأمة ، وألغيت الاتفاقية الدينية فى لمبارديه وتمتع الناس بحرية العبادة . أما فى بودينه وبارمه فنفذت قوانين سكاردى وأباح جيربانى فى الرومانى التعبد ومنع الاكليروس من مراقبة التعليم والأمور الخيرية . أما فى طوسكانه فألغى ريكاسولى وصالفا جنولى الاتفاقية الدينية وأعاد قوانين لئوبولد ولبى رهبان لمبارديه الذين يفوقون جميع زملائهم فى إيطالية بالوطنية أوامر حكومة بيمونته وتحرر رهبان طوسكانه من نير الاتفاقية التى فرضت عليهم الخضوع للأساقفة . أما الاكليروس الفقير فتلقى التشريع الذى يزيد فى وارداته الضئيلة بسرور وارتياح ؛ أما روما فلم تلق فيها الدعوة إلى المصالحة والسلم آذانا صاغية ، وإذا كان بعض الرهبان الأحرار يرضون عن المبادىء الواردة

فى رسالة (البابا والمؤتمر) ، ويوافقون على أن تتقلص ممتلكات الحكومة فإن أكثر أنصار البابا كانوا يعتبرون حقوق إلبابا مقدسة لا يجوز مسها وأن التخلى عن الرومانى معناه الاعتراف بالتخلى عن الأيالات الأخرى أيضاً ، وكان البابا منذ مدة طويلة قد حرم جميع الذين اشتركوا بالثورة وحكم بكفر دازجيلو لأنه قال لأهل بولونيه : « خلق الله الإنسان حراً فى أرائه الدينية والسياسية » .

وقد صب أنصار البابا كل سخطهم على بيمونته وكانوا يعتبرون بيمونته مرادفة للثورة فهما شىء واحد . وفى شهر تشرين الأول سلمت الحكومة البابوية الممثل البيمونتى فى روما جواز سفره ، ثم رفض البابا بعد ذلك كل سعى فى التفاهم وكان انتوناللى يعتمد قبل كل شىء على الجيش ولكنه كان لا يستطيع أن يركن أبداً إلى الجنود من الأهليين لأنهم كانوا يجندون من سقط المتاع ، وعليه فقد وجه نداء إلى أوربا الكاثوليكية يستمد منها فيه الجند والمال للدفاع عن العرش البابوى ضد الحملات الإلحادية ؛ ومع أن الكاثوليك لم يجودوا بما لهم فقد تدفق المتطوعون من النمسه وسويسرة وبلجيكه وفرنسه وإيرلنده أفواجاً للدفاع عن مصلحة الكنيسة ضد الإلحاد الثورى الذى يهدد أوربا . إن عملهم هذا لا يمكن تصويبه لأنهم قد أتوا لصيانة الفساد الذى لم يتحملوه هم فى بلادهم وجاءوا يقاومون الشعب المضطهد جد الاضطهاد والذى

يجاهد للحصول على حريته ، وكان بينهم فتيان مثقفون من الشجعان الأتقياء الذى ينتمون إلى أشهر الأسر وقد تركوا قصورهم الهادئة من برطانيه وبلجيكه وهرعوا للدفاع عن قضية لا يليق بهم أبدا أن يضحوا بأنفسهم لأجلها ، ولقد أصبح لدى انتوللى فى نهاية أذار خمسة عشر الفاً من المتطوعين ماعدا خمسة آلاف هم قوام الجيش البابوى المنظم وإذا أضفنا إليهم الحامية الافرنسية فى روما ونظرنا بعين الاعتبار إلى وجود جيش نابولى فى الخط الثانى أدركنا تحشيد قوة كافية فى أومبريه والمارك للدفاع عنهما . وقد توقع أن يسترد بهذه القوات الرومانى أيضاً واختار انتوللى القائد الافرنسى الجنرال (لا موسيير) قائداً للقوات وكان هذا القائد قد ترك فرنسه على أثر الانقلاب الحكومى فيها وأصبح الآن البطل المكافح عن البابوية .

وصمم القوميون على أن لا يتركوا أومبريه والمارك رغم خصومة العالم الكاثوليكى ونقمته وهم لم ينسوا حادثة بيروزه الفظيعة ، أما الحكومة البيمونتية فقابلت أعمال انتوللى بإنزال الضربة على الأساقفة المعارضين ؛ وتهدد قسم كبير من البيمونتين بعدم حضور القداس ، وأما الأحرار الكاثوليك المتدينون الذين كانوا يدركون الخطر فكانوا يرون أن الدواء فى انهيار السلطة الزمنية ، فلا توجد فى نظرهم أية مغالطة تستطيع أن تخفى بطلان الأسباب التى يستند اليها فى إثبات مشروعية استقلال البابا بينما

يقوم عرشه على حراب فرنسه . وبينما هو نفسه يستند إلى التمسه لحمايته الخاصة ضد رعيته ، وأخذ الناس يشعرون بأن البابا لا يريد الاصلاح ولا يستطيع أن يعمل به ولن يرضى بقيام المؤسسات التمثيلية ولا بحرية الصحافة ولا بالمدارس العلمانية ولا بالمساواة بين الاكليروس والمدنيين أمام القانون . وأدرك القوميون فى إيطاليه بأنه ما دامت روما تغدو عشا للدسائس للأمراء المخلوعين فإن انتوناللى لابد من أن يسعى لجر الاكليروس إلى مؤامرة واسعة النطاق ضد حرية إيطالية واستقلالها ، وبذلك تكون السلطة الزمنية خطراً دائما على المملكة الجديدة فما لم يسرح البابا متطوعة وما لم تصبح روما عاصمة إيطالية فإن خطر الحرب الأهلية التى يثيرها التعصب الدينى متوقع فى كل لحظة .

ولم يكن هدف القوميين فى ذلك الحين يتعدى الاستيلاء على أومبريه والمارك ، ولم يفكر أحد بالاصطدام بالحامية الافرنسية المرابطة فى روما إلا بعض المتطرفين ، وكانت أكثرية الرعية البابوية تنتظر التخلص من حكومة البابا بفارغ الصبر . ولم يكن القوميون فى الخارج أقل تلهفا على إنقاذ مواطنيهم وقد سخط المعتدلون من أمثال كانوثى ودازجليو سخطا عظيما من هذا النوع الجديد من التدخل فى الشؤون الإيطالية من قبل جماهير الأفاقين من متعصبة الكاثوليك ، وقد قال ريكاسولى : « إننا إذا هوجمنا سنعرف كيف ندافع عن أنفسنا وننقذوا بعد ذلك مهاجمين » .

واتصل باللجان الوطنية فى أومبريه اتصالا وثيقاً حاثاً إياها على التأهب للثورة ، طالما توعز الحكومة بإسعار نارها .

وفى ٧ شباط كتب فكتور عمانوئيل إلى البابا كتاباً طلب إليه فيه أن يمنحه سلطة الحكم ليس على الرومانى فحسب ، بل على الأيالتين الأخريين نيابة عنه مؤكدا له فى الوقت نفسه إخلاصه للكنيسة بيد أن هذا النداء لم يلق أذنا صاغية لدى البابا . ومع أن الملك بعد الاقتراح كتب مرة للبابا عارضا عليه — لمصلحة السلم — الاعتراف بسيادة البابا الاسمية على الرومانى من دون أن يذكر الأيالتين الأخريين ، فإن أنتونللى رفض كل مفاوضة رفضاً باتاً . وكان كافور وحده من دون الجميع يتوقع بعض الخير من هذه المفاوضات ، وقبل أن يصل رفض انتونللى البات كان قد سعى لحمل نابليون على الاستعجال فى سحب جنوده ، والآن بعد أن امتنع البابا عن القيام بأى اصلاحات فإن الامبراطور لم يرض أن تصبح روما عشاً للدسائس ، فلذلك اتخذ تدابير شديدة ضد الصحافة الكاثوليكية الإفرنسية وتهدد البابا بسحب جنوده إذا هو لم يقبل نصائحه . واقترح فى شهر نيسان بتبديل جنوده بجنود نابليون ، ولما رفض الملك نابولى هذا الاقتراح خشى أن يؤدى إلى حرب بيمونتى ونابولى عاد الامبراطور فاقترح تأليف جيش أهلى يكفى للدفاع وأغرى البابا بقبول الفكرة بقوله بوجوب دفع الدول الكاثوليكية نفقات هذا الجيش للبابوية ، وحينئذ ينسحب

الإفرنسيون . وما أسرع ما يقبل انتوناللى الذى كان يكره الحماية الإفرنسية هذا التكليف بشوق ورغبة . وقد وافقت النمسة ونابولى وأسبانية على الاقتراح ، وكان البابا والقائد لامارسيليير يرغبان فى الاحتفاظ بالإفرنسيين فى روما وترك الكتائب الأهلية والمتطوعين طليقى اليد فى الحركة ضد الرومانى ، ولكن ممثل الإمبراطور فى روما توفق إلى عقد اتفاقية تضمن انسحاب الإفرنسيين فى ١ تموز ثم حدثت حوادث حالت دون تنفيذ هذه الاتفاقية ، ذلك أن غاريبالدى نزل إلى مرساله وزبيانكى فى اليوم السابق لليوم الذى وقع فيه على المعاهدة وتأهب لاجتياز حدود الأراضى البابوية . وحدثت فى صقلية مأساة فاجعة أنست الناس فى هذه الساعة القضية الرومانية ، وتفصيل ذلك فيما يلى :

كان استبداد حكومة نابولى فى صقلية والكراهية المستحوذة على العموم ضد آل بوربون وثورات الصقليين التقليدية عوامل فعالة فى توجيه نظر القوميين منذ سنوات مديدة نحو رسم خطة تستهدف أسعار لهيب الثورة فى الجنوب ولم يعتبر فرديناند من حوادث الزمن وأخذ الخلل يزداد فى الإدارة كلما شملت الآلام صحة الملك وقد انتابه فى آخر عمره مرض عضال ومات على أثره فى ٢٢ ايار ١٨٥٩ فخلفه ابنه فرنسوا الثانى ؛ فكان هذا الملك الفتى يجهل شؤون الدولة كل الجهل ولذلك استمر على سياسة أبيه الخارجية متمسكا بمعظم أسسها . وتولى فيلانجيرى رئاسة الوزارة ولو كان هذا

طليق اليد لمنح الدستور ، بيد أن قوى الكنيسة والجيش تألبت عليه لإحباط مشاريعه فى بداية سنة ٢٨٦٠ فقدم استقالته وطالبت الحكومتان الإفرنسية والإنجليزية بالإصلاحات ، ثم إن بروسيه وروسيه أيضاً نصحتا الملك بالاعتدال خشية أن يوقد الاستبداد نار الثورة ، فقامت الحكومة ببعض الإصلاحات الطفيفة وشمل العفو العام المسجونين السياسيين بيد أن الشرطة استمرت على قساوتها وسوء معاملاتها .

وأرادت فئة صغيرة من اللاجئين إنقاذ آل بوربون وحملها على حفظه مكانتها كما أراد اشراف فلورنسه إنقاذ الدوق الكبير ؛ فطالب هؤلاء إلى الملك تطبيق سياسية تقدمية حرة . وقد خيل لبعض أفراد قلائل منهم صيف سنة ١٨٥٩ بأن الوحدة بين الشمال والجنوب ستدخل فى دور سياسى عملى ، ولإبعاد موراث عن العرش .

كانوا يريدون عن طيبة خاطر تمهيد السبيل لفرنسوا ، وكان كافور رغبة فى حشد ما يمكن حشده من القوات الايطاليه و إنزالها إلى الميدان قد اقترح قبل موت فرديناند وطالب بعد موته بالحاح عقد حلف هجومى ودفاعى عن مشاريعه ضد آل بوربون ، ولكن فرنسوا كان لا يعبأ بالاستقلال الإيطالى وقد أقصت عنه طائفة الحاشية فى البلاط نفوذ فيلا نجيرى ، حتى أنه سعى فى الخريف إلى عقد حلف ضد بيمونته ، ولولا معارضة نابليون الثالث لأرسل

القوات لاسترداد الرومانى لحساب البابا ، أما مشروع اللاجئين والحالة هذه فلم يظاهره إلا فئة قليلة فى تابولى ، ولم يكن فى تلك المدينة إلا أشخاص قلائل يثقون بعض الثقة فى الأسرة المقوتة ، فلذلك عارض أنصار موراث القوميون السياسة التى تستهدف تقوية نفوذ آل بوربون ، وأصبح الجنوب بعد معاهدة فيلا فرنكه من جديد فى الصف الأول من طلاب الوحدة إذ بذل أنصار الوحدة جهدهم فى تقوية الفكرة القومية المترجرجة وتثبيتها وجعلها مرتبطة بهم بعد أن فقدوا نفوذهم فى حادثة فيلا فرنكه . وقد كان إجماع أحزاب الشمال على ملكية بيمونته ووضع طوسكانه واميليه ونفوذ غاريبالدى من العوامل الفعالة التى حملت القوميين فى الجنوب على الانضمام إلى صفوف أنصار الوحدة ، وكان (ڤابريزى وكادرويو) قد دبرا مؤامرة فى صقليه وحث لا فارينا المنتمين إلى الجمعية القومية فى صقليه إلى الثورة بعد فيلا فرنكه ، ودخل كريسبى الذى كان لا يزال جمهورى المبدأ الجزيرة متنكراً وأخذ ينظم الجمعيات السرية لإشعال الثورة فى تشرين الأول ، بيد أن لا فارينا غير خطته بعد ذلك وطلب إلى رجاله التريث ريثما تنضم إيطاليه الوسطى ، وعلى الرغم من وعد غاريبا لدى لكريسبى بأنه سينجده فإن حركة العصيان قد فشلت ولم يحدث إلا تمرد جزئى بالقرب من باليرمو لكن كريسبى لم يقنط ، ورغم فشله فى الحصول على مساعدة رتازى فإنه استعد لحركة جديدة فى شهر نيسان المقبل ، وقد شجعه كافور

ورفقاؤه قليلا ، وكان مازينى مختفياً فى جنوه فاشترك فى المؤامرة وطلب إلى غاريبالدى أن يترأس الثوار إلا أن غاريبالدى لم يثق كثيراً فى نجاح ثورة شعبية لذلك اكتفى بالوعد باعطاء السلاح على أن يرفع الثوار الراية الملكية ، وكان مازينى قد اختار ، (روزا ليو بيلو) ، الشريف الصقلى قائداً فى حالة رفض غاريبالدى ، فسافر بيلو بعد بضعة أيام مع رفيق واحد وقليل من المال ويحمل فى قلبه الأمل السامى فى تحرير صقليه ، ولما نزل إلى الجزيرة بالقرب من سينا كانت الثورة قد نشبت ، ودق ناقوس دير (ديللا جانسيه) فى بالرمو فى صباح ٤ — نسيان الدقات التى تؤذن بنشوب الثورة . ولما كانت الحكومة بالمرصاد فقد هاجم جنودها الدير ونهبوه واكتفت بالبرمو بتظاهرات تافهة ، أما الأطراف فلبت الدعوى وثارت وكان يصعب على الثوار أن يقاوموا مدة طويلة لذلك انقلب الجنود من متطوعة الألمان والسويسريين عليهم وانتقموا منهم شر انتقام ، فغضب أكثرية لجنة جنوه على مازينى لأنه لا يريد أن يتبع أى سياسة سوى سياسته ، وعزمت على تسيير الأمور بنفسها واجبار غاريبالدى على الوفاء بوعده فوافق غاريبالدى على كره منه . وطلب إلى الملك أن يضع تحت تصرفه لواء من الجيش الملكى ، لأنه اقتنع بأنه لا يستطيع أن يقوم بعمل مؤثر إلا بمعاونة كافور وكانت أفعال كافور وأطواره فى هذه الأزمنة متناقضة ولكن سياسته فى نهاية أذار أخذت تتجلى ولا سيما بعد أن بلغه

خبر الاقتراح القائل باحتلال الرومانى من قبل الجنود النابوليين . وخشى أن تؤدى هذه الحركة إلى الاستيلاء على الرومانى فعلا فاعتزم حالا بأن يعتبرها عملا عدائياً . وقد كانت سياسة كافور منذ أربع سنوات ترمى إلى منع أى حركة تسبب انشقاق القوميين واستغلال كل حركة من حركات الثورة ، ولا بد من أنه علم بأن الثورة ستقع فى صقليه ؛ فلذلك قرر أن يغمض عينه عما يقع فيها وأن يدبر الحركة ولكن بصورة خفية بحيث لا تتحمل الحكومة أية مسؤولية ، وأخذ يفتش عن قائد يترأس الحركة ولما لم ينجح وعلم بنبأ مراجعة غاريبا لدى الملك نسى الهجمات العنيفة التى وجهها إليه يومئذ وأدرك بأنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يخرج من هذه الحركة ظافراً ، فأخبر لا فارينا بأنه سوف يمنح غاريبالدى كل المساعدة وسوف يجهزه بالبنادق المخزونة فى مخازن الجمعية القومية ووافق على أن يستعمل غاريبا لدى البنادق التى اشتريت فى ميلانو بالمبالغ المجموعة بالاكتتاب .

وكان غاريبالدى حينئذ على الساحل قريباً من جنوه وكان يميل إلى الذهاب إلى نيسى سراً للشروع فى مقاومة بائسة ضد الإفرنسيين ولكنه حين اتصلت الأخبار السيئة عن أحوال صقليه تردد فى الأمر ، وتلقى كافور خبراً من مندوبه فيلا مارينا بأن الثورة تبشر فى النجاح فى صقليه وكان يعلم بأن النمسه لن تتدخل وقد طمأنه لا فارينا من ناحية إخلاص غاريبالدى للعرش . ولما جست جنوه نبضه فى ٢٣ نيسان قوى أملها على ما يظهر بأنه سوف

يساعدها . وبينما كان كافور يتردد فى الأمر كان غاريبالدى يضطرب من التردد ويلوح له بأن واجبه الذهاب إلى المحل الذى يقاتل فيه الطليان مضطهديهم ولكن وضع كافور يفزعه . ولما وصلت البرقية التى زورها كريسبى تحمل أخباراً سارة عن صقليه زال تردده وأعلن عزمه على الحركة حالما يتمكن . أما كافور فكان فى رأى آخر إذ أصبح يعتقد بأن إرسال قوة إلى الجزيرة إنما هو طيش وجنون . . . فالأسئلة أخذت تتوالى من الحكومات الأجنبية تسأل عن هذه الاستعدادات التى تجرى فى جنوه ، وكان كافور قد قال للسفير الإفرنسى بأن الحكومة صرفت النظر عن الحركة ، وفى هذه الساعة وصل إليه نبأ عزم غاريبالدى على السفر فأوشك أن يضيع رشده ، وأسرع إلى بولونيه يطلب إلى الملك القبض على غاريبالدى ؛ أما الملك فلم يلب طلبه فأدرك كافور استحالة الوقوف دون الحركة بسبب هياج الرأى العام فعزم على أن يهيىء كلما يقتضى سوقه من القوات لإنجاح الحركة . وذهب لافارينا إلى جنوه لتسليم بنادق الجمعية الوطنية ، ولكن لأسباب مجهولة لم يستلم غاريبالدى إلا بعضها ، وأرسلت التعليمات إلى السلطات الجركية فى جنوه لتغمض عينها عن مرور الأسلحة ، وكان (برسانو) الأميرال البيمونتى قد تلقى أمراً بتوقيف القوة البحرية التى يقودها غاريبالدى إذا رست فى ميناء ساردينى ، لأنه كان يعلم بأن كافور إنما كان يرمى بذلك الأمر ذر الرماد فى العيون ، فلذلك رأى سفينتى غاريبالدى تمخران البحر من دون أن يقلقهما .

الفصل الثلاثون

غاريبالدى فى صقلية

أيار : آب — ١٨٦٠

فى اليوم الخامس من أيار تركت الحملة الصغيرة جنوه فوق باخرتين ، وقد طلب الالتحاق بها كثيرون إذ أن لجنة جنوه التى يرأسها برتانى وسمعة غاريبالدى قد جذبتا المتطوعين من جميع أنحاء إيطاليه ولقى غاريبالدى صعوبة عظيمة فى تقليل عددهم إلى ألف رجل ونيف ليستطيع أن يأخذهم معه على الباخرتين ، وكان معظم هؤلاء من إيطالى الشمال فكان بين ألف وسبعين من ذوى القمصان الحمراء ثمانمائة وخمسون من أهل لمبارديه وأميليه وفنيسيه ، وكانت هذه العصبة تتألف من خليط من الوطنيين القوميين والمغامرين الذين تربطهم بغاريبالدى رابطة الإخلاص له والشجاعة الفائقة . وكان شرف تهيئة هذه الحملة يعود إلى إقدام لجنة جنوه ولبرتانى وكريسبى ومازينى الذين استطاعوا بإيمانهم القوى أن يتغلبوا على تردد غاريبالدى وأن يجبروا الملك وكافور على السير وراءهم . وكان إعداد الحملة يومئذ تدبيراً محفوفاً بالمخاطر لا يقدم عليه إلا الشجعان

المغامرون ، وكان لآل بوربون فى صقلية ثلاثة وعشرون ألفا من الجند ومائة ألف وغيرهم فى القارة مع مدفعية قوية وقلاع يكاد يتعذر اقتحامها ولعلنا لا نجد فى أوربا كلها رجلا ما عدا غاريبالدى يستطيع بهذه النواة الصغيرة ومن دون مساعدة ، وفى هذه الظروف أن يقاتل وأن ينتصر على قوات فائقة ساحقة . حقاً لقد خلقت سفرة الألف إيطاليا خلقاً جديداً ، لقد توجهت السفينتان نحو الجنوب سالكتين طريق الساحل ترمقهما أنظار جميع الإيطاليين وتتجه نحوهما أفئدة الأمة فى قلق عظيم ، ذلك لأن القوة لم تأخذ معها ما يكفى من العتاد لسلاحها لأسباب لعل باعثها الخيانة ، حتى لتكاد الحملة تصبح بلا سلاح . وقد أمر غاريبالدى رجاله بالوقوف فى الميناء الطوسكانى الصغير (بالامونه) ليتلافى فيها النقص فى العتاد أولا إذا استحصل على ما يحتاج إليه من العتاد وثلاثة مدافع وأراد بالوقوف ثانية أن يلبى رغبة مازينى ورفقائه فى إرسال قوة إلى الممتلكات البابوية فى الوقت الذى تذهب فيه الحملة إلى صقلية ، وكان يتوقع بهذه الحركة أن يلفت أنظار عدوه إلى هذه الناحية ويخفى الهدف الأصلى الذى استهدفه من رحلته . وقد نزل إلى الميناء ستون رجلا بقيادة الضابط (زمبيانكى) وكان يتوقع بلا ريب أن تصل إليه النجدات من طوسكانه وأن يتحرك كوزنسى ومديجى من جنوه بعده بقوات كبيرة . ومع أن غاريبالدى كان يجهل بلا شك خبر المفاوضات التى كانت تجرى

لإخلاء الإفرنسيين ممتلكات البابا فإنه لابد أدرك المكاره التي ولدها للحكومة بحركته هذه ، وكان من جراء تصلب مازيني في مغامرته الجديدة ومساعدة غاريبالدى له أن تأجل إخلاء الحامية الإفرنسية للممتلكات البابوية ، واضطرت إيطاليه أن تنتظر عشر سنوات أخرى لإنقاذ روما . وما كاد خبر إنزال القوة يصل إلى كافور حتى أرسل أوامر شديدة إلى ريكاسولى يأمر فيها بأن يحول دون خرق حياد الأراضي البابوية ، بيد أن الشعب كان متحمساً للحركة فاجتاز زمبيانكى الحدود فى ٢٠ أيار ، ولكن قوات البابا هاجمته وأرجعته إلى أرض طوسكانه حيث جرده ريكامبولى من السلاح وأوقف جماعته .

ووصل غاريبالدى إلى مارساله فى ١١ أيار وقد استطاع أن يتملص من السفن الحربية النابولية عرض البحر ولكنه ما لبث أن اقترب من الساحل حتى شاهدته طرادتان تعقبتاه على مقربة منه حتى دخوله الميناء ، ولو استطاعت الطرادتان أن تحسنا صب نيرانهما وتوجيهها لما استطاع نصف الحملة النزول إلى البر ، وبينما كان يتقدم غاريبالدى نحو باليرموكان (لاماسا) يبذر بذور الثورة فى الأنحاء الريفية وأخذ رجال (السكوادرة) الباقون من ثوار ديللا جانسية يصلون إليه زمرا . وفى اليوم الخامس عشر من أيار قابل غاريبالدى فى منتصف الطريق القوات النابولية التى احتلت قبل ذلك موضعاً منيعاً ، وكان معه ثمانمائة رجل من أتباعه وألف

وخمسمائة من عصابة السكوادرة الذين يعوزهم السلاح وينقصهم الضبط ، بينما كانت قوة عدوه تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى كامل العدة جيد الضبط ، ومع ذلك فقد تغلبت شجاعة الوطنيين على كثرة الجند النابولى ، وبعد قتال عنيف استمر عدة أيام استولى غاريبالدى على موضع العدو الذى كان يدافع فيه عن باليرمو إلاّ أن الموقف كان لا يزال حرجا للغاية رغم تحرر وسط الجزيرة وإرسال نجدة مؤلفة من خمسة آلاف رجل إليه ، لم يكونوا سوى عصابات ينقصها النظام وينتابها الذعر بسهولة ، ولا يزال ينتظره فى باليرمو عشرون ألفاً من الجيش النابولى النظامى ، وكان تفوق القوات الملكية من حيث العدد والسلاح والضبط حتى إنها لتستطيع بقيادة أى قائد أن تسحق عصابة الأبطال الصغيرة هذه دون عناء ، وأدرك غاريبالدى بأن مخرجه الوحيد من هذا المأزق هو القيام بحركة جريئة فذة تتغلب على القوات المتفوقة ولما لم يجرأ على مهاجمة المدينة قام بحركة التفاف ووصل بعد مسير يومين على قوس طويل فى الجبال إلى ميسلميرى الواقعة جنوب شرق المدينة ، بينما كان عدوه يسير فى رتلين نحو الجنوب باتجاه خاطئ ، وكانت خطة غاريبالدى ترمى إلى مهاجمة المدينة ليلا يقيناً منه أنه إذا ما دخل المدينة فستصبح الدور معاقلا له وتسرع الجماهير لمساعدته ، ولما فشلت خطته فى ضبط المدينة بغتة بسبب ذعر جماعة السكوادره شرع بالهجوم فوراً ، واستولى على ميناء ترمينى فى صباح ٢٧ أيار ،

وأخذت نواقيس الكنائس تدق داعية الناس إلى القتال وأخذ الشعب يتحرك ويثور ، واستطاع غاريبالدى بذلك أن يحتل المدينة خطوة بعد خطوة إلى أن أقصى جنود نابولى الذين لجأوا إلى قلعة (كاستل مارة) وماجوارها وإلى بعض المبانى المنفردة فى أطراف القصر . وكانت مذبحة هائلة وصفها أحد الحاضرين بقوله : (لقد ضبط كل ما بقى تحت وابل مدرار من القنابل واستولى على كل قدم من الأرض فى لظى اللهيب المتأجج وطقطقة الدور المتداعية وعويل المصابين الذين ينشدون ألا فلات من الانقاض وصيحات الضحايا الذين ذبحهم الجنود الضوارى حين لاذوا بالفرار) .

وانقطع القصف صباح ٢٩ — أيار لمساعدة الحامية على القيام بحركة خروج ، بيد أن الهجوم الذى قام به الجند توقف أمام المتاريس ووهنت عزيمة قائد الحامية وفقد شجاعته . وبعد قتال استمر أربعة أيام طلب قائد الحامية إلى قائد الأسطول البريطانى الراسى فى الميناء التوسط ، وتلقى غاريبالدى طلب إيقاف القتال تمهيدا للهدنة بلهفة ، ووافق على مهلة أربعة وعشرين ساعة ، ولما انقضت هذه المدة طلب قائد الجنود تمديدها للاتصال بنابولى ، ولما علم الملك بأن سبيله الوحيد إنما هو التفاهم مع إنجلتره وفرنسه ، أرسل أمراً بإخلاء المدينة ، وفى ٢٠ حزيران ركب آخر جندى السفينة مغادراً الجزيرة ، وقد انتشرت الثورة فى الجزيرة كلها قبل ذلك التاريخ . وبحركة غاريبالدى هذه تحررت الجزيرة من الحكومة

ما عدا مسينه وسيراكوزه اللتين كانتا تخافان القصف من قبل الأسطول النابولى وقلعة ميلانو وأوجوسته . إن هذه الحركة ترينا كيف تغلب ألف رجل على أربعة وعشرين ألفا من الجنود فى شهر واحد واستولوا على جزيرة يبلغ عدد نفوسها مليونين .

وانهار فى الجزيرة ذلك الاستبداد الذى يكمن الشر والفساد فى طياته ، وكان تأسيس حكومة تحل محل ذلك الاستبداد من أشق الصعوبات ، ذلك لأن الصقليين رغم كونهم استقبلوا الثورة بكل جوارحهم وبترحيب قلبى عظيم ، حتى أن الاكليروس نفسه انضم إلى القضية العامة ، وتجول الرهبان والخوارنة فى الجزيرة يبشرون بالحرب المقدسة . لم يكونوا على استعداد لتقديم تضحيات وحسبهم أن جزيرتهم تحررت ، وأنهم تخلصوا من النابوليين البغيضين . أما الوحدة الإيطالية فلا تهمهم كثيرا ، وقد وقف الأغنياء الأنانيون موقف المتفرج تملأ نفوسهم الريبة من حاشية غاريبالدى . وفشل مشروع التجنيد الذى رسمه غاريبالدى أمام مقاومة الشعب السلبية ولم يجتمع لديه سوى ألف من المتطوعين :

وأخذ جماعة السكواردة يطالبون برواتبهم صاخبين ، فاضطر غاريبالدى إلى تسريحهم وإعادة تنظيمهم . وكانت الحكومة المركزية عاجزة كل العجز ، وكانت توجد عناصر خطيرة فى باليرمو نفسها ، وقد فتحت أبواب السجون أيام القتال ، وأخذ المجرمون يتجولون فى الطرقات ، ويتهددون خصومهم

الشخصيين . ولم ينقذ صقلية من فوضى الجرائم التى تعقب الثورات إلا سمعة الدكتاتور المطلق التصرف وحدها .

حقا لقد عجز الدموقراطيون عن تأسيس حكومة فى الجزيرة ، وكان كريسبى الذى أصبح الرئيس الحقيقى فى الحكومة لا يزال يجهل قيادة الناس ، لقد كان عنيدا نشيطا ، ولكن لم يكن محبوباً من الناس إلا قليلا ، وكان من الرجال الذين يستطيعون أن ينجزوا عملا كثيرا ، وربما كان الشىء الكثير أقرب إلى الإساءة منه إلى الصلاح . وقد فشلت مساعيه فى تأسيس حكومة من الهواة ، وعلى الرغم من أن الشعب أظهر كل احترام ومحبة نحو غاريبالدى ، فإنه لم يقدم على تأدية الضرائب ، وأصبح غاريبالدى دكتاتورا بالاسم ، وألعوبة بيد الرجال الذين اعتمد عليهم ، واكتفى بالتوقيع على الأوراق التى يضعها كريسبى أمامه . وأخذ كريسبى يغمر البلاد بقوانين جديدة زادت فى الارتباك ، فسدت المحاكم أبوابها أو كادت بعد أن أقصى القضاة من مناصبهم ، وأحدثت أخبار الفوضى فى الجزيرة قلقا عظيما فى نفس كافور . وقد هبت العاصفة السياسية الأوربية إلا أنها لم تكن مخيفة كما توقع كافور أن تكون ، إذ اقتصر الأمر على إنذار من روسيا تقول فيه إن موقعها الجغرافى وحده هو الذى حال دون تدخلها ، أما إنجلتره فكانت كثيرة العطف على الحركة ، وأما فرنسه فقبلت اعتذار كافور بكون الحكومة لا تستطيع أن تحول دون حركة غاريبالدى من دون أن تعرض

للخطر الشديد ؛ فلذلك قرر كافور بعد قليل من التردد تسهيل سفر النجدات الخصوصية . وقد توقع أن يعبر غاريبالدى بعد بضعة أيام إلى كلبريه ، فوافق فى نهاية شهر حزيران على تجهيز النجدات المرسلة إلى غاريبالدى بالسلاح المخزون فى دار صناعة الحكومة فى جنوه . ومع ذلك فإن كافور ظل متردداً بين إسداء المعونة إلى حدها الأقصى والسير إلى آخر الشوط ، والتملص من تبعة الحركة بتضحية غاريبالدى إذا اقتضت مصلحة الحكومة ذلك ؛ أما فيما يتعلق بالاعتداء على ممتلكات البابا فإنه كان يرغب فى عدم التدخل ، ولذلك أقنع مديجى وكوسن بالكف عن نياتهما بشأن أومبريه على الرغم من أوامر غاريبالدى لهما وسوقهما النجدات إلى صقلية . وأدرك كافور أن الحركة الديموقراطية المعادية للملكية البيمونتية قد تفرق صفوف القوميين وتؤدى إلى حرب أهلية ، وقد ينحرف الناس فى تيار الجمهورية ، فعقد النية على توقيف تلك الحركة فى بدئها ، وأوفد لافارينا إلى باليرمو لكى يقوى غاريبالدى ضد النفوذ الديموقراطى ، ويتولى تنظيم شؤون الحكومة ويعمل فى الانضمام .

وكان كريسبى فى باليرمو وبرتانى فى جنوه يبذلان جهدهما ليحولا دون الانضمام المطلق . أما غاريبالدى فكان يعتقد بأن إيطاليه تحتاج إلى دكتاتور نزيه ولو إلى حين ، ولاح له أن يؤجل أمر الانضمام ريثما يكمل مهمته ، وأخذ يقتنع بأن السياسة الخارجية

قد تتدخل فيما إذا استلم فيكتور عمانوئيل حكومة الجزيرة وقد تمنعه من العبور إلى القارة لإكمال مهمته فى توحيد إيطالية . أما كافور فلم تكن نفسه تتوق لضم الجزيرة فحسب ، بل بضم نابولى أيضاً حالما تسنح الفرصة . ومما يؤسف له أن اختيار لافارينا للمهمة التى أنيطت به لم يكن موفقاً ، ذلك لأنه كان عدوا شخصياً لكريسبى وكان الحزب الديموقراطى يكرهه وكان من السهل إقناع غاريبالدى الدكتاتور بأن الرجل الذى وقع على وثيقة التخلى عن نيس مسقط رأس غاريبالدى لا يمكن أن يكون صديقاً له ، وقد كان أول عمل قام به لافارينا أن هاجم حكومة كريسبى بشدة ونشب الجدال بينهما ، وبذلك سيطرت الحزازات الشخصية وعبثاً حاول غاريبالدى الاحتفاظ بصاحبه واضطر أخيراً إلى إقصاء كريسبى بعد أن رأى مناصرة الرأى العام لفارينا ، بيد أن كريسبى ظل الرجل المسموع الكلمة لدى الدكتاتور ولذلك امتنع غاريبالدى عن الموافقة على الانضمام مع أنه سبق فأراد الحركة نحو روما ليستولى عليها ويجعلها عاصمة إيطالية الموحدة وأخيراً أبعد لافارينا من الجزيرة .

فغضب كافور لهذا العمل غضباً شديداً وأنذر غاريبالدى فى أواخر حزيران بمنع سفر النجدات فيما إذا ظل كريسبى الدموقراطى المفرط وكيلا له ، ولم يكد لافارينا يرجع إلى تورينو حتى منع المخازن من تقديم التجهيزات الحكومية إلى غاريبالدى على أن

كافور لم يكن شديد الرغبة فى معاكسة غاريبالدى أملا فى الاستفادة منه ، فأوفد (ديبرتيس) بعد أن استطلع رأى غاريبالدى فوافق عليه لأن ديبرتيس كان قد استقال محتجا على التخلى عن نيس ، وقد نجح ديبرتيس بالقيام بإصلاحات عظيمة فى الإدارة وخطا نحو الوحدة فى إدخاله القوانين البيمونتية إلى الجزيرة ، خطوات واسعة وأراد كافور أن يتعاون ديبرتيس مع كريسبى ، ولما عاد هذا للعمل اشترط بأن لا يبحث فى الإلحاق ما لم تتحرر نابولى . وتقصير كافور هنا أنه لم يعمل بعزم ، فلو أمر بإجراء الاقتراع العام فى الجزيرة للانضمام أو ضده لوفر على إيطاليه كثيراً من الجهود والمتاعب ولتقبلت أكثرية الجزيرة هذا الطلب بارتياح بيد أن مثل هذه السياسة الجريئة كانت تتطلب رجلا أكثر عزماً من ديبرتيس .

وبث نجاح غاريبالدى الفرح فى جميع أنحاء إيطاليه وأصبح مطمح أكثر الفتيان أن يجاهدوا تحت رايته ، وقد تجند من بولونيا وحدها كما قيل سبعة آلاف وهرب جنود بيمونتيون من وحداتهم للالتحاق به ، وسارع الطوسكانيون الذين كانوا يكرهون التجنيد من كل حدب وصوب للالتحاق بقوات مديجى وكوستر ، وأخذت الاكتتابات لشراء مليون بندقية تتدفق وأظهر برتامن فى جنوه كفاية عظيمة فى تنظيم النجدات والاسراع فى إرسالها . ووصل إلى صقليه قبل ٣٠ — تموز أكثر من

تسعة آلاف رجل وحدث أن اصطدم مديجى بقوات يوسكو قائد الجنـد النابولى بالقرب من ميلازو فى ١٧ — تموز فأسرع غاريبالدى إلى ارسال جميع الرجال الذى استطاع أن يحشدهم وهاجم موضع يوسكو الحصين فى برزخ ميلازو ، وحدثت فى ٢٠ تموز معركة عنيفة وكان جنود نابولى قد تحصنوا وراء الجدران والأسياج ولـكن رجال غاريبالدى استطاعوا بعـد قتال شديد أن يحتلوا المدينة فالتجأ يوسكو إلى القصر ، ورغم أن غاريبالدى لم يكن يملك مدافع حصار فقـد استولى على القصر بعد ثلاثة أيام ثم أخلى جنود نابولى سيزا كوزه وأوجسته ولم يبق فى الجزيرة بيد آل بوربون سوى قطعة مسينة .

ولم تقتصر اجتياح الحماسة التى ولدها غاريبالدى على الفتيان الذين سارعوا للانضمام إليـه فحسب ، بل انجرف فى التيار رجال عرفوا بالرصانة من أمثال دازجليو ولانزا وقد كتب كافور فى رسالة له : (إن أكثر الرجال تعقلا ورصانة وأشد المعتدلين والمحافظين أصبحوا من أنصار الوحدة) . وكان خوفهم تلاشى رويداً رويداً كلما اتضح لهم أن بلادهم سوف تصبح مملـكة متحدة كبيرة ، وقد طلب ريكاسولى إلى كافور بان يكف عن سياسته المترددة وأن يفسح للملك المجـال ليتزعم الحركة بشجاعة ، بيد أن المصاعب كانت ترمى أكثر ممـا تصورها ريكاسولى وكانت خطة كافور فى السياسة الخارجية أن لا يقطع الحبل ما استطاع

إلى ذلك سبيلا ، وكان يحسب لخطر هجوم النمسويين حساباً عظيما ويخشى ألا تستطيع إيطاليه وحدها الوقوف بوجهه من أجل ذلك كانت فكرة الاحتفاظ بعطف الإمبراطور عاملا أساسياً فى سياسته الخارجية .

وأوشك فرانسوا ملك نابولى بعد موقعة باليرمو أن يقطع أمله فى التغلب على قوات غاريبالدى فالتمس من نابليون بأن ينقذ عرشه المترجرج بالتوسط بينه وبين الثوار ، ولكن الإمبراطور رفض التوسط ما لم تنل الجزيرة استقلالها التام ، وأن يحكمها أحد أمراء آل بوربون ، وأن يمنح الدستور النابولى ويتحالف مع بيمونته ، وكان الشرط الأخير الذى أصر عليه الامبراطور أقسى الشروط على فرانسوا ، لأنه هو الذى أقام الدنيا وأقعدها لتضرب بيمونتيه فى الرومانى ، وبذل جهودا جبارة ليتجنب ذلك الشرط الذى يحمله على الخضوع لخصمه البغيض ، وقد يزجه فى حرب مع النمسه . وحيث إن وزراءه فقدوا كل شجاعتهم فقد أشاروا عليه بعد قليل من التردد بالموافقة على طلبات الإمبراطور ، وقد وافق عليها طالبا تبديل الاستقلال التام فى الجزيرة بالحكم الذاتى ، وضغط الإمبراطور على كافور لقبول الشروط ، وسعى لإقناع الحكومة الإنجليزية بإقرار هذه التسوية مقترحا عليها عقد هدنة ، وإرسال الأسطول إلى مضيق مسينه لمنع قوات كافور من عبوره . ولما كان الرأى العام فى بيمونته يعارض فى شدة فكرة محالفة نابولى فإن

كافور قرر إحباط المفاوضات ، إلا أنه لم يشأ أن يرفض جهرا وصايا الإمبراطور . وفى اليوم الذى أبدى ميله بقبول فكرة الحلف مع نابولى كان يود لو أن غاريبالدى اجتاز المضيق ، لذلك وضع شروطا كان يعلم أن فرنسوا لن يقبلها . ولما طلب الامبراطور إلى الملك بأن يبذل نفوذه لمنع غاريبالدى من الحركة وافق كافور على ان يكتب الملك للدكتاتور كتابا فى هذا المعنى على أن لا يقوم فرنسوا بأى عمل لاسترداد صقلية . وقد أصر على هذا الشرط لأنه كان يعلم بأن إنجلتره تعطف عليه ، أما فرنسوا فسرعان ما تخلى عن بطولته لحماية ممتلكات البابا وعرض على بيمونته تجزئة تلك الممتلكات بينه وبين بيمونته ، فلم يسع كافور بعد ذلك أن يؤجل إرسال الكتاب ، وحمل الملك على الكتابة إلى غاريبالدى فى ٢٢ — تموز يدعوه إلى التخلى عن نياته بشأن نابولى إذا أراد فرنسوا أن يترك صقلية حرة ، وكتب الكتاب فى أسلوب يحمل غاريبالدى على رفض الطلب حتما كما أن كافور أفهم غاريبالدى بأنه يتلقى رفض طلب الملك بالترحيب . وقد رفض رسل مقترحات الامبراطور لارتيابه من نياته بشأن ساردينيه ، وأيقن نابليون بأن انهيار آل بوربون أصبح أمراً لابد منه ، وأرسل الأمير نابولى كتابا سريا إلى غاريبالدى يذكر له فيه أن الامبراطور يوصيه بأن يتحدى السياسة بالأمر الواقع . وهكذا نجح كافور فى سياسته . فغاريبالدى سيرفض حتما تلبية أوامر الملك ، ولن

يقوم الافرنسيون بأى عمل ليحولوا دون عبور المضيق . ولما كان كافور لا يزال يشك فى إخلاص غاريبالدى للملكية ويخشى أنه إذا ما نجح فى مشروعه أن يخضع لإيحاءات الدموقراطيين المتطرفين ، وأن يمتنع من سماع وصايا الحكومة البيمونتية وحينئذ تسوء الأمور فى الجنوب كما ساءت فى صقلية ، وقد تؤدى إلى انشقاق بين الشمال والجنوب ربما ينتهى إلى قيام الملكية فى الشمال والجمهورية فى الجنوب ، فقد فكر فى اجتناب ذلك كله لو استطاع أن يسبق غاريبالدى فى العمل بحمل أهل نابولى على الثورة ، وإعلان رضائهم بالانضمام قبل أن يصل الدكتاتور إليهم ، و إذا ما ثار النابليون من أنفسهم فإن كافور يستطيع ساعتئذ أن يسوغ تدخله أمام الدول ولا حاجة إذن لمفاوضة آل بوربون .

وكان قوى الأمل بأن تلبى نابولى الدعوة وما أسرع ما نهض الحزب البيمونتى من خموده وأظهر نشاطه وقوته ، ولما أعلن فرنسوا الدستور فى ٢٥ حزيران ملبياً دعوة الامبراطور قابل الناس هذه المنحة بالاستخفاف ، وكانوا يعلمون بأنه هذه هى المرة الخامسة يمنح فيها آل بوربون الدستور ، وأخذت (لجنة النظام) التى تألفت فى نهاية ١٨٥٩ لتأمين الضبط بين الجماعات القومية المختلفة تتراسل مع لافارينا وبرتانى . وكان كافور يعتمد كثيراً على المتآمرين الموجودين فى مركز الحكومة نفسها ، وكان بعض الموظفين يخونون الدولة سراً لمصلحة الجمعية القومية حتى أن (نوزيانته)

أحد القواد الذين يثق بهم فرنسوا كل الثقة وعد كافور بأن يحرض القطعات على مخالفة أوامر آل بوربون ، ثم إن عم الملك دوق سيرا كوزه اشترك مع نوزيانته هـذا فى المؤامرة ، وكان (ليبوريو رومانو) وزير الداخلية من أخطر المتآمرين ، إذ كان المسيطر الحقيق على المدينة بعد أن نظم حرساً قومياً فيها واتصل بجمعية كامورا . وكانت هذه الجمعية بعد أن خدمت الاستبداد لمصالح خاصة ، عادت فباعت نفسها لمعاضدة الثوار واستطاع رومانو هذا بحركة جريئة أن يبدل الشرطة برجال الـكارا مورا .

وما أن فشلت المفاوضات بشأن الحلف حتى أوعز كافور فى ٣ — تموز إلى ممثل بيمونته فى نابولى (فيلا مارينا) بالاتصال مع المتآمرين ، وفى اليوم ذاته أمر الأميرال برسانو بالسفر إلى نابولى بقسم من أسطوله وإنزال شحنة من البنادق خلسة بالاتفـاق مع رومانو . وبينما كانت لجنة النظام تهيئ ثورة شعبية برعاية رومانو كان نوزيانته يحوك الدسائس فى الجيش بنشاط ، ولـكن المتآمرين أخبروا فى ٢٣ آب كافور بأن مساعيهم فى كسب الجيش قد حبطت وأن العصيان فى العاصمة أمر مشكوك فيـه ، ولـكن الأيالات أخذت تتململ وأرسلت بعض البنادق البيمونتية إلى باسيلـكانه ، وأعلنت (كورليتو) الثورة فى ١٦ آب وفى اليوم الثالث نصبت بوتنزه قاعدة الأيالة حكومة موقتة باسم فيكتور عمانوئيل وغاريبالدى وما أن أبحر غاريبالدى المضيق حتى امتـدت الثورة إلى (آبولى)

فى الشرق و (ساليرنه) فى الغرب ، وقبل أن يجتاز كلبريه أضاع آل بوربون ملكهم واجتمع عشرة آلاف متطوع تحت السلاح ولكن نابولى ظلت هادئة واشتد الشقاق فى لجنة النظام بين المعتدلين والديموقراطيين حتى أدى إلى فقدان التعاون النزيه ، الأمر الذى شل جهود اللجنة . وبينما كان أصحاب كافور يريدون طرد فرنسوا تواً والاستيلاء على الحكم باسم فيكتور عمانوئيل كان العنصر الديموقراطى المتطرف قد انشق وألف لجنة عمل بتحريض مازينى ، واستهدفت توقيف الحركة إلى حين وصول غاريبالدى ، لينال غاريبالدى وحده شرف طرد آل بوربون ، ولتصبح الحكومة فى قبضه يدهم . ولما اقتنع كافور بعدم إمكان نشوب ثورة فى نابولى ، فكر فى الخطة التى ربما احتفظ بها لتنفيذها عند الضرورة . وكانت هذه الخطة حاسمة جريئة ذات خطورة ترمى إلى فتح إيطاليه بأجمعها وإعلان ملكية فيكتور عمانوئيل فيها ، ولاسيما بعد أن خشى زيادة نفوذ الديموقراطيين المتطرفين وارتاب من تفاقم سيطرة غاريبالدى . وعليه فليس من سبيل للاحتفاظ بمكانة بيمونتيه وضمان بلوغ أهدافها إلا أن تكون فى الصف الأول من الجهاد ، وقد قال كافور : « إذا لم نكن نحن فى فلتورنه[1] قبل أن يصل غاريبالدى إلى كاتوليكا[2] فستنهار الملكية » . وقد رسم منهجا للعمل يقضى بإيفاد حملة كبيرة لفتح أومبريه والمارك ابتغاء

(١) اسم نهر فى جنوب إيطاليه فى مملكة نابولى .

(٢) اسم مدينة بالقرب من روما .

اكتساب جيش للملك الصيت الحسن ، ولسحق قوات القائد الإفرنسى لامورسيير ، والقضاء على أنصار آل بوربون ، وتقضى الخطة بإيفاد الملك إلى نابولى على رأس قوة كبيرة إذا اقتضى الأمر لإبقاء غاريبالدى فى الصف الثانى .

وكانت هناك أسباب أخرى تستدعى اتخاذ هذه الخطة ، فلا يزال لدى آل بوربون جيش قوى يبلغ مائة ألف جندى ، يضاف إلى هـذا أن لا موسيير قد يعير قسما من جنوده لتقوية الجيش البوربونى ، فيضطر غاريبالدى إلى خوض غمار قتال عنيف قبل أن يصل إلى نابولى ، وعمت ايالات البابا النقمة من سوء تصرف المتطوعين ولا سيما الايرلنديين المغرورين الفاقدى النظام ، وكان المتطوعون القوميون فى الرومانى وطوسكانة متحفزين لاجتياز الحدود ، وقد سعى مازينى طول الصيف فى نشاط عظيم للقيام بحركة زحف نحو أومبريه وكان لديه ستمائة رجل فى جنوه وألف رجل فى الرومانى ، ومثل ذلك فى (سيجنه) بقيادة الجمهورى (نيكوتيرة) . وقد وعد ريكاسولى بتجهيز رجال مازينى بالبنادق إذا لم يعارض كافور ذلك وقد رحب غاريبالدى بهذا المشروع من كل قلبه موقناً بأن جيوش الثورة ستزحف نحو روما ، ولما اطلع كافور على ذلك ، كانت الانذارات الصاخبة الأجنبية قد أفزعته ، بيد أنه كان يريد أن يظل مصانعاً لرجال غاريبالدى من جهة وأن يستخدم متطوعى طوسكانة لتنفيذ خطته الخاصة من جهة

أخرى ، وقد اتصل بالملك ورجاه أن يوافق على تحريك الحملة ووعده بأن يضمن على مسئوليته عدم الهجوم على أى موقع فيه قوات إفرنسية ، ولـكن لا فارينا أجابه باسم الحـكومة بأنها لا توافق على حركة المتطوعين من جنوه للنزول فى سواحل البابا أو طوسكانة بأى صورة كانت ، ولـكن هذه القوة تستطيع أن تسافر بمفرزات متفرقة صغيرة على أن تجتمع فى خليج (أرانكى) بالقرب من ساردينيه على أن تمر أولا من صقليه ، فوافق برتانى على هذه الشروط ولم يبت فيما يتعلق بالمتطوعين فى سيجنه ، ثم سافر على رأس قوته معتزماً خرق العهد إذا تمكن من ذلك واثقا بقدرته على إقناع غاريبالدى بأن يتولى قيادة المتطوعـين وتوجيههم نحو (الأهداف المطلوبة) ، وقد ذهب مازينى إلى فلورنسه من دون أن يكون له علم بذلك العهد وقرر بالاتفاق مع نيكوتيره اجتياز الحدود والهجوم على بيروزه . ولمـا اطلع كافور على هذه الأخبار خشى عاقبة هـذه الاختلاطات واتخذ التدابير الصارمة ضدها ، فأصدر فارينا بلاغا شديد اللهجة منددا بكل من يتدخل فى شؤون الحـكومة ، كما أنه لم يساعد المتطوعين على الحركة ، وأوعز إلى كافور وريكاسولى بأن يسرح رجال نيكوتيره فورا . بيـد أن ريكاسولى احتج على هذه الشدة المفاجئة ، ثم تفاهم وكافور على أن يجرد المتطوعين من السلاح بهدوء ، ثم تتولى الحـكومة تسفيرهم إلى صقلية . وقد قوت هذه الحادثة من دون شك اقتناع كافور

بضرورة الإسراع فى الحركة ؛ ولـكنه كان يقدر أهمية عواقب هذه الحركة والعقبات التى تقف فى وجهـه ، فهو إذا شرع فى تنفيذ برنامجه من دون موافقة الإمبراطور فإن ذلك سـيؤدى إلى بقاء الإفرنسيين فى روما مدة غير معينة ، وقد يصبح الجيش الإيطالى وجها لوجه أمام القوات الإفرنسية ، بينما تترقب النمسه الفرصة لجمع الأسـلاب ، ثم أنه إذا استطاع أن يكسب موافقة الإمبراطور فسيواجه خطرا آخر أشد ؛ إذ بينما تقاتل أحسن القوات الإيطالية فى الوسط قد تنتهز النمسة الفرصة للهجوم ، وإذا انضم الإفرنسيون ولامورسيير بقواتهم إليهـا وسحقوا غاريبالدى فسيبقى الجيش الإيطالى بين قوات عظيمة فى الجنوب والجيش النمسوى فى الشمال ، وكانت الخطوة الأولى التى خطاها كافور لاتقاء شر النمسه وفرنسه بالحصول على موافقة الامبراطور ، فأوفد إليه فى شاءبره فارينى وجيالديني لجس نبضه ومعرفة آرائه بشأن أومبريه ، وقد قالا له فى ٢٨ — آب بأن الثورة على وشك الانفجار وأن نجاح غاريبالدى ينـذر بزج إيطاليه كلها فى جحيم الثورة ، وأن الخطر لا يمكن اجتنابه إلا إذا سبق فيـكتور عمانوئيل غاريبالدى وزايده بالثمن باحتلاله إيطاليه الوسطى ، ووعدا الامبراطور بأنه إذا وافق على حركة الاستيلاء فإن حكومة بيمونته تعتـبر روما بلدا مصونا ، ولعلهما تعهدا بأن لا يتوغل الجيش البيمونتى فى أرض البابا ما لم تنشب ثورة فيها . وكان نابليون على استعداد لأن ينصت إليهما ،

ولاسيما لأن تعنت البابا كاد أن يفقد الامبراطور رشده ، وكان يعلم بأن جيش لامورسيير أصبح عشاً للمؤامرات ، وتوقع أن يؤدى تقدم البيمونتيين إلى فزع البابا واضطراره إلى الهروب وبذلك يزول السبب فى بقاء الجنود الافرنسيين . من أجل هـذه الاعتبارات كلها أبدى الامبراطور موافقته ورضاءه ، ورجع فاربنى وجيالديني إلى تورينو فى ٢٩ — آب ، وفى ٣١ — آب قررت الوزارة الشروع بحركة الاستيلاء على أن تنشب الثورة فى ١٨ — أيلول فيجتاز الجيش البيمونتى الحدود حالما تنشب ، وحجته فى ذلك منع إعادة مجزرة بيروزه ، وقد قال كافورعقيب اتخاذه هذا القرار : « أن ستكون إيطاليه بعناية الله قبل انقضاء ثلاثة أشهر » .

الفصل الحادى والثلاثون

الحاق الجنوب

آب — ١٨٦٠ : شباط — ١٨٦١

استلم غاريبالدى كتاب الملك ، فأجاب عليه بأن الوعد الذى قطعه لأهل نابولى يحول دون تلبية أوامره ، وقد عسكر رجاله بعد ظفر (ميلازّو) على ضفاف مضيق مسينه ، وكانت طرادات نابولى تراقب البحر ، ولكن مفرزة بقوة مائتى شخص استطاعت فى ٨ — آب اجتياز المضيق إلا أنها اضطرت إلى الانسحاب إلى (اسبرومونته) . وبعد بضعة أيام قدم برتانى وفهم منه غاريبالدى أن الحملة التى أعدت لبريطانيا الوسطى تعسكر فى خليج (أرانجى) وعلم غاريبالدى فى الوقت نفسه أن الحكومة جردت نيكوتيره من السلاح ، واعتزمت إرسال قوات للمارك ، ولما ضاق ذرعا بالبقاء عاطلا ذهب إلى ساردينه لتسخير القوة المعسكرة فيها فى حركة ضد نابولى ، ولكن علم حين وصل إلى الخليج أن قسما من القوة قد سافرت ، فعاد أدراجه إلى باليرمو مصمما على اجتياز المضيق .

وفى ٢٠ — آب أنزل أربعة آلاف رجل قرب (ميلتو) فى منتهى المضيق الجنوبى واحتل (ريجيو) عنوة . وكانت ترابط فى كلبريه قوة مؤلفة من (٣٠٠٠٠) من جنود نابولى ، إلا أنه كان يتوقع أن يتغلب عليهم بحركاته الجريئة السريعة كما فعل فى صقلية ، وبالفعل لقد فاز بأكثر مما كان يتوقع ؛ وفى سان جيوفانى سلم تسعة آلاف من جند نابولى أنفسهم طائعين بعد أن اغتالوا قائدهم (بريغانتى) ، وهكذا قبض غاريبالدى على ضفتى المضيق ، واجتازته قواته الباقية من دون مشقة وانضم إليه الثوار فى القرى الواقعة على أطراف أسبرومونته . ولما تقدم سالكا طريق الساحل التحق به آلاف من أهل كلبريه ، وكان لا يزال لدى الحكومة النابولية فى الأيالات عشرون ألفا يستطيعون المقاومة بثبات ، متحصنين بالموانع الطبيعية المنيعة التى تعترض الطريق ، بيد أن الذعر انتشر بينهم بسرعة واختل ضبطهم بالدعاية الحرة ودسائس نوزياتته حتى أخذ الجنود والضباط يطلبون تسريحهم والعودة إلى بيوتهم . وفى (كوزنزه) ألقت قوات كالداريلى سلاحها فور مطالبتها بذلك ويبلغ عددها سبعة آلاف ، وفر القائد (فياله) ناجيا بنفسه خشية أن يصيبه ما أصاب بريغانتى ، وكان يسيطر على مضيق (مونته لئونه) وتبلغ قوته اثنى عشر ألفا ، ولما رأى أن العصابات الكلبرية قد أحاطت به سلم نفسه بلا مقاومة ، وثارت أيالة باسيلكاته قبل خمسة عشر يوما من ذلك ، وبهذا تحرر نصف

المملكة من دون أن يطلق رجال غاريبالدى رصاصة منذ استيلائهم على ريجيو . وأخذ غاريبالدى يتقدم فى البلاد على رأس طليعته ، ويكاد يكون بلا حرس بين حماسة الجماهير وهتافاتهم ، وارتبك بلاط آل بوربون ارتباكا عظيما ، وولد مجرد اجتياز غاريبالدى للمضيق الرعب فى نفس فرنسوا حتى عرض على غاريبالدى فى ٢٧ — آب بأن يعيره خمسة آلاف جنديا لمقاتلة النمسويين أولامورسيير فيما إذا كف عن القتال . وأخذ رومانو يتآمر جهاراً واجتمع أخيراً بغاريبالدى ودعاه إلى نابولى ، ولما ورد نبأ عصيان الجنود فى القرب من ساليرنه ، وعزم الأسطول على التخلى عن الخدمة ترك فرنسوا نابولى فى ٦ — أيلول . وفى صباح اليوم التالى وصل غاريبالدى مع بعض رجاله إلى نابولى بقطار السكة الحديدية رغم أن القوات الملكية لا تزال تحتل مواضع قوية من شأنها أن تجعل غاريبالدى والمدينة كلها تحت رحمتها إلا أنه استقل القطار وأتى إلى المدينة دون أن يكترث للخطر المحدق به ، أما الجنود فانسحبوا دون أن يقلقوا راحة الضيوف القادمين ، ويوم دخل غاريبالدى نابولى أرسل كافور إنذاراً إلى انتوناللى وطلب فيه أن يسرح المتطوعين الكاثوليك الأجانب لأن وجودهم يهين كرامة الطليان ويهدد سلامة أهل أومبريه ، وبعد مرور يومين أنذر فانتى قائد القوات المحتشدة على الحدود لامورسيير بأنه إذا أقدم على أى عمل يمس الحركة القومية أو يعرقل سيرها فإن ذلك سيؤدى

إلى احتلال الأملاك البابوية ، وقد وردت الرسالتان إلى روما فى اليوم ذاته فاعتزم الكرادلة القتال ، ولم تكن قوات لامورسيير المختلطة تبلغ العشرين ألفا أكثرها من المتطوعين الذين يعوزهم النظام ، وكانت القطعات النظامية مستاءة ، فقد اعتزم لامورسيير أن يقمع كل معارضة بأقصى الشدة .

اجتاز المتطوعون القوميون الحدود فى اليوم المقرر وكانوا يتقدمون الجيش البيمونتى المتفوق الذى شرع بالحركة فى ١٠ ايلول أى قبل أن يصل جواب انتونللى وكانت قوته تبلغ (٣٥٠٠٠) بقيادة فانتى وقد انقسم إلى قسمين القسم الأول بقيادة (ديللا روكا) وتقدم فى أومبريه نحو بيروزه والقسم الآخر بقيادة جيالدينى توغل فى المارك نحو الكاثوليكا وهدفه انكونه . وكان لامورسيير قد وزع قواته فى أومبريه والمارك متخذاً أنكونه قاعدة لحركاته ، وقد نشبت فى ١٨ أيلول معركة فوق روابى (كاستل فيد اردو) ، استطاع فيها جيالدينى أن يسحق بقواته البالغة ثلاثة عشر ألفاً خمسة آلاف من الجنود الباقية لدى لامورسيير الذى هرب مع بعض جماعته إلى انكونه تاركا الجنود المبعثرين بلا قائد ، على أن انكونه دافعت عن نفسها ببسالة ضد مدافع جيالدينى وأسطول برسانو واستسلمت فى ٢٤ ايلول ، وكانت ارتال ديللا روكا قد اقتربت من روما حتى وصلت إلى موقع يبعد نحو مسيرة ثلاث ساعات ، وعلى الرغم من وجود الحامية الإفرنسية فى روما فإن المدينة كانت تنتظر دخول البيمونتيين

بفارغ الصبر وقد أعد كل بيت العلم المثلث الألوان ليحيى به الملك فيكتور عمانوئيل ، وكان البابا ينوى الهروب لولا المشقة العظيمة التى لقيها (جرامون) فى ردعه .

وبانخذال لامورسيير نستطيع أن نقول إن الوحدة الإيطالية قد تمت وهى تكاد تتم ، فما عدا فنيسيه وطرانتينا فى الشمال وروما وممتلكات البابا فى الساحل حيث لا تزال القطعات الإفرنسية تحتلها بين (كابوليه وجايته) ، فقد تحررت جميع إيطالية بيد أن الخطر أخذ الآن يهدد إيطالية بانشقاق القوميين ، فغاريبالدى يسىء الظن بكافور وأخذ هذا الظن يتزايد بتأثير الحاشية التى تحيط به ولا سيما بعد أن بلغه خبر مكذوب يقول بأن كافور قد تخلى عن ساردينه لفرنسة لقاء حرية الحركة فى إيطالية ، وقد صمم على أن لا يضع سيفه فى غمده إلا بعد أن يحرر روما واعتزم على أن يبقى دكتاتوراً فى صقلية ونابولى ما دامت المهمة التى أخذها على عاتقه لم تنجز . وكان كافور أيضاً بدوره يرتاب فى غاريبالدى ويدرك مقدار الخطر الذى يهدد البلاد من بعض خططه الطائشة ضد روما وأخذ يخشى أن تعم الفوضى فى نابولى كما عمت فى صقلية وقد حاول كافور حتى بعد فشل رجاله فى نابولى أن يسبق غاريبالدى بتعيين برسانو ، أوفيللا مارينا أو كونت سيرا كوزه دكتاتوراً على نابولى قبل وصول غاريبالدى اليها ، ولما قيل له بأن هذا العمل يؤدى إلى حرب أهلية تحدى غاريبالدى بأن عمل على تأسيس حكومة

موقته ، ومع أن اللجان الثورية أقامت حكومة موقته فى نابولى بعد فرار فرنسوا إلا أنه تم الاتفاق على أن تعلن الحكومة الموقتة غاريبالدى دكتاتوراً باسم فكتور عمانوئيل .

ولما وصل غاريبالدى إلى نابولى أقصى أعضاء الحكومة الموقتة عن العمل ووضع الأسطول النابولى تحت أمرة الأميرال برسانو وسلم دار الصناعة إلى قوة بيمونتية وأعلن بأن جميع أعمال الحكومة تحمل اسم الملك ، وبعد بضعة أيام أصدر إرادة تقضى بأن يكون الدستور البيمونتى مرعياً وأن تكون القوانين البيمونتية فى القضاء والجيش نافذة ، وألغى المصالح القنصلية الخاصة بمملكة نابولى كما ألغى جميع الحواجز الجمركية الموجودة بين المملكة وباقى أقسام إيطالية ولكن الرجال المحيطين به استطاعوا أن يوغروا صدره ضد كافور بحيث أصبحت نابولى عشا لأعداء كافور ، وسارع مازينى بالمجىء إلى نابولى وأصبح برتانى سكرتيراً للدكتاتور ورسم منهجاً واسعاً معقولا للإصلاحات الاجتماعية وكان يتضمن ادخال طريقة تدريس منتجة مؤثرة وتحويل أرض الكنيسة وأملاك الأشراف إلى خزينة الدولة وتوسيع شبكة السكك الحديدية والخطوط البرقية وتأسيس صناديق للتوفير وتنظيم الأعمال الخيرية وإصلاح مؤسساتها وتعميم الخدمة الصحية وهدم مواخير الرجس فى نابولى . ومما يؤسف له أن يصبح برتانى مرجعاً للحزب الذى يحول دون وجود حكومة مستقرة ، وظل غاريبالدى مصمما على الذهاب إلى روما

وتأخير إعلان ضم نابولى ريثما يتوج فيكتور عمانوئيل فى الكابيتول ، وعبثاً حاول برسانو أن يردعه عن ذلك وعبثاً أبان له السفير البريطانى (أليوت) عواقب تلك الخطة وأخطارها ، ولم يعبأ بكل ذلك بل إنه كان موقناً بأن الأربعين ألف جندى الذين كانوا لا يزالون مخلصين لآل بوربون سوف يؤسسون نواة الجيش الإيطالى فى نابولى ، واعتقد بأن الإفرنسيين لن يقاتلوا فى سبيل السلطة الزمنية وأن هنغارية تنتظر الإشارة لتثور وتصبح فنيسيه لقمة سائغة للقوات المتحدة المؤلفة من جنود جميع أنحاء إيطالية ، ولما رأى دبريتسى فى صقلية لا يزال يسعى لضم الجزيرة أقصاه عن العمل وعين بدلا عنه (موردينو) وهو من المعارضين لفكرة الانضمام .

وقد نشب الجدل ذاته بمقياس أوسع فى نابولى على أن شبه الجزيرة كلها كانت متشوقة للانضمام كصقلية ، ومع ذلك فقد نجمت أمور لم تكن تدعوا إلى الارتياح فالشرطة من رجال الكامورا لم تتمسك بحسن السلوك مدة طويلة ثم إن عناصر الاضطراب والجنود غير المنظمين والمجرمين الذين أطلق سراحهم أخذوا يعيثون بالأمن ويثون الفوضى كما أن الحركة الرجعية أخذت ترفع رأسها . ومما زاد فى فساد الإدارة أن برتانى ملأها بالافاقين كما فعل كريسبى فى صقلية وضاعت ثمانون ألف بندقية كانت قد أرسلت لتجهيز الحرس القومى ووقعت بأيدى خطره ، وحين

تولى كريسبي وزارة الخارجية نشب النزاع فى الحكومة بينه وبين أنصار كافور .

على أن الانتصار الباهر الذى أحرزه جنود غاريبالدى حسّن هذا الموقف المخزى ، وكان فرنسوا ومعه من أربعين إلى خمسين ألف جندى يرابط وراء نهر فولتورنه ، يستند إلى قلعة كابونه بمثابة رأس جسر فى الضفة اليسرى من النهر ، والخطر يأتى من تقدم هذا الجيش المتفوق بالعدد وتغلبه على المتطوعين واسترداد نابولى ؛ فلكى يحمى غاريبالدى المدينة من هذا الخطر المتوقع نشر قواته البالغ عددها أربعة وعشرين ألفا ، منها عشرة آلاف من كلبريه ، على خط طوله اثنان وثلاثون كيلو متراً . وفى ١ — تشرين الأول هجمت قوات آل بوربون على طول هذا الخط ، وكان لديها خيالة ومدفعية كافية ، وكانت قوتها تفوق قوة المتطوعين ضعفين . فلم يتمكن (ميلينز) فى سانتا ماريا ومديجى فى سانت أنجليو من الاحتفاظ بموضعهما إلا بشق الأنفس . وقد احتفظ غاريبالدى باحتياطه إلى الساعة الأخيرة ثم قذف به فى المعركة حين خارت قوات الجند النابولى من التعب ، فاستطاع غاريبالدى أن يهزمهم وأن يستولى على مواضعهم وأن يطاردهم حتى جدران قلعة كابونه . وكان بيكسيو مع خمسة آلاف من رجاله يشتت شمل ثمانية آلاف صمدوا له فى (مدّالونى) ، ثم إن (برونزيتى) تغلب بثلثمائة رجل على أربعة آلاف من الجنود فى (كاستل مورونه) . وبلغت خسائر

غاريبالدى فى هـذه المعركة (١٨٠٠) نفس ، ويصح القول بأن معركة فولتورنه هذه من ألمع انتصارات إيطالية الحديثة ، إذ أظهر فيها المتطوعون من المتانة والحمية ما لا تقل عما أظهره جنود بيمونته النظاميون ، وكان معظم قطعان آل بوربون من المرتزقة السويسريين والنمسويين الذين قاتلوا قتالا مجيداً . وقد أبرز الرؤساء والرجال مقدرة وشجاعة فى الدفاع عن المواضع الضعيفة أمام تفوق عددهم فى العدد والعدد .

وظل غاريبالدى رغم هـذا النصر الباهر عاجزا عن إنهاء الحرب فى الجنوب . وبينما كان الهرج والمرج سائدا فى نابولى أقدم غاريبالدى على المطالبة بإبعاد كافور من رأس الحكومة ، وأجاب على طلبات كافور فى ١٥ — أيلول بأنه لن يكون صديقا للرجل الذى أهان كرامة الأمة وباع أيالة إيطالية ، ثم كتب للملك يطلب إليه إبعاد كافور وفارينى من الحكم عارضا عليه استعداده لضم صقلية ونابولى تواً . تعذر على كافور أن يتخذ التدبير الذى يقهر به الدكتاتور ، وقد لحظ أن عزم غاريبالدى قد اشتد على التقدم نحو روما ، وأوجس خيفة من أن يعلن الدكتاتور الجمهورية ، فدعا البرلمان إلى الاجتماع فى ٢ — تشرين الأول ليطلب إليه الصلاحية المطلقة لضم الجنوب إلى المملكة الجديدة حتى إذا ما وافق البرلمان على طلبه هذا يتولى الملك قيادة الجيش فى انكونه حالما يتم حصارها ويتقدم نحو نابولى فإذا خضع غاريبالدى فنعم

العمل ، وإلا فإن أقل ما تعمله الحكومة إرسالها قوة إلى باليرمو لضم صقليه . صرح كافور قائلا : «إذا كان غاريبالدى يريد القتال فليفعل ذلك وإنى أشعر بأن لدى من القوة ما يكفى لمقاتلته» ، وحاول أن يكسب صداقه غاريبالدى مرة أخرى بأن أوفد برسانو وكتب إليه قائلا : «سنذهب يوما ما الى روما لا محالة ، ومن الطيش التفكير بها ، اذ علينا الآن أن ننجز أمر فنيسيه معا والا نضيع وقتنا فى الأحلام» . وفى ٤ — تشرين الأول خول المجلس النيابى الوزارة بما يقارب الإجماع صلاحية جمع أيالات الوسط والجنوب على أن تعلن بالاقتراع العام رضاها عن ذلك ، وبعد يومين من اتخاذ ذلك القرار وصل الملك إلى انكونه ، ووصل فى الوقت ذاته باللافيجينو يحمل رفض غاريبالدى ؛ وكان باللافيجينو هذا من الوطنيين المتصلبين . وكان يكره كافور إلا أنه كان يدرك ما فى سياسة غاريبالدى من طيش فاعتزم أن يبذل جهده فى مظاهرة أنظار الانضمام ، وكان كريسبى قد خلف برتانى فى سكرتيرية الدكتاتور فسعى إلى قهر أنصار الانضمام بالقوة وأوشك أن يقع الاصطدام بين الجيشين القوميين وشاع أن برتانى أرسل برقية إلى قائد الحرس القومى على الحدود فى (ابروزه) يبيح له إطلاق النار على قوات الملك ، ولكن الخبر كان مكذوبا مما حمل غاريبالدى على أن يرسل برقية يطلب بها استقبال البيمونتيين إخوانا ، ثم كتب الى الملك يحثه على ارسال القوات ، ورأى باللافيجينو ضرورة الإسراع فى العمل والبت فى الأمور قبل أن

يقوم الدكتاتور بعمل مشؤوم يزج البلاد فى حرب أهلية فحرض الوزارة على تقرير إجراء الاقتراع العام ، وقد قررت الوزارة ذلك ظنا منها أن غاريبالدى قد وافق عليه .

وكان غاريبالدى يريد مجىء الملك إلا أنه كان دائماً متمسكا برأيه فى ضرورة الزحف على روما وكان يعلم بأن الإلحاق يقضى على خططه . وترأس كريسبى المعارضة واقترح الدعوة إلى عقد مجلس تمثيلى بدلا من إجراء الاقتراع العام ولكن قد يعارض المجلس فكرة الإلحاق وفى هذه الحالة لا يمكن اجتناب الحرب الأهلية ، ولكن غاريبالدى رغم هذا المحذور أيد رأى كريسبى فما كان من باللافيجينيو إلا أن هدد بالاستقالة من الوزارة . ومن حسن الحظ أن الشعب أدرك خطورة الموقف فقام أهل نابولى بمظاهرة صاخبة طالبين الانضمام ورأى غاريبالدى نفسه بأن الشعب كله ضده فمال فوراً إلى رأى باللافيجينيو ووافق على إجراء الاقتراع العام ، وناشد البلاد بأن تنسى وجود الأحزاب السياسية وتتناسى أحقادها الحزبية .

وجرى الاقتراع العام فى ٢١ تشرين الأول وأعلنت نتائجه بعد خمسة عشر يوماً ، واقترع لفكرة الانضمام فى شبه الجزيرة ، (١٠٠٠ر٣١٠ر١) ضد (١٠٠٠ر١٠) صوتا ، واقترع فى صقلية (١٠٠٠ر٤٣٢) صوتا ضد (٦٠٠) صوتا وفى مدينة نابولى ذاتها اقترع (١٠٠٠ر١٠٦) للانضمام ضد (٣١) صوتا فقط ،

ثم جرى الاستفتاء بالاقتراع بعد بضعة أيام فى المارك وأمبريه وكان عدد القائلين بالانضمام فى الأولى (٠٠٠ ر ١٣٣) ضد (١٢٠٠) وفى الثانية (٠٠٠ ر ٩٧) ضد (٣٨٠) واقترعت أيالة (فيتربه) للانضمام على الرغم من أن الجنود الإفرنسيين كانوا يحتلونها ، وعلى أثر ذلك أخذ كافور يدعو الملك للعجلة فى المسير لأنه أصبح يخشى هجوماً يباغت به النمسويون لمبارديه ولم يكن يستطيع إرسال الجيش لمقاتلة العدو ومع أن بولونيه وبيازنسه كانتا محصنتين وأن لمبارديه وبيمونته تنفران للجهاد بكلتيهما إلا أن آخر القوات الإفرنسية كان قد ذهب من لمبارديه فى حزيران ، وأصبحت القوات الإيطالية الضعيفة معرضة لخطر شديد ، وكان من المحتمل جداً أن تنتهز النمسة هذه الفرصة السانحة للهجوم ، وكانت النمسة تريد الحرب من دون ريب . صحيح أنها رفضت التدخل لمصلحة البابا على الرغم من دعوة انتونللى لها غير أن استيلاء الجند البيمونتى على أومبريه ولد فى المحافل السياسية سخطاً عظيما على بيمونتة ، فاستدعت روسية سفيرها واحتجت بروسية بلهجة شديدة ، حتى الإمبراطور نابليون نفسه تهدد بالمعارضة مع أنه شجع كافور خفية على المضى فى عمله واستدعى سفيره من تورينو ، وظلت إنجلتره وحدها موالية إلا أنه لم ينتظر منها بأن تخوض غمار حرب فى سبيل إيطالية وعليه فقط ظهرت إيطاليه وحيدة منعزلة تماماً . وأحس كافور بدنو الخطر شيئاً فشيئاً إذ توقع توجيه الإنذار من النمسة وساوره

القلق الشديد حتى إنه فى نهائية تشرين الأول طلب إلى الملك وفانتى العودة تواً ، ثم حدث بعد ثلاثة أيام ما طمأنه أن إيطاليه أصبحت فى سلام .

وكان الإمبراطور نابليون الثالث هو الذى أنقذها فى هذه المرة أيضاً إذ استمال قيصر روسيه إلى جانبه وهدد النمسه ، ولعل الوزارة الإنجليزية بذلك هى أيضاً نفوذها فى برلين فكف فرنسوا جوزيف عن مشروعه الحربى ، وحين كان الجو متلبداً تقدم الملك نحو الجنوب مع فانتى رئيس أركان حربه وفاريني حاكم نابولى المقبل واجتاز نهر (ترونتو) ، ثم دخل أرض نابولى فى ١٥ تشرين الأول فاستقبله الشعب فى كل مكان استقبالا عظيما واعتبره البطل المنقذ حتى أن رجال الإكليروس وعلى رأسهم الأساقفة هرعوا لاستقباله بالمراسيم الدينية . وبينما كان غاريبالدى يقمع حركة بعض القرويين الموالين لآل بوربون الذين ثاروا ضد رجاله وفتكوا بالأحرار كان الملك يجتاز على مهل منطقة (ابروزه) سالكا ضفة نهر فولتورنه اليسرى ليستطيع الإحاطة بجيش آل بوربون ، ولما رأى فرنسوا نفسه بين نارين ترك اثنى عشر ألفاً من جنده فى كابوه وانسحب بالباقى وراء نهر جاريجليانو .

وما علم غاريبالدى باقتراب الملك حتى ذهب لمقابلته وقد اقتنع بأن التغلب على مقاومة آل بوربون لا يمكن أن تتم إلا بمجىء جيش الملك ، وأدرك صعوبة الحركة نحو روما فى تلك الآونة وقرر

تأجيلها حتى الربيع وبهذا قد يكون قد شعر بأن سياسته قد فشلت ، ولعل لنصائح أصدقائه من ذوى البصيرة تأثيرا فى ذلك .

وتمت المقابلة المشهورة بين الملك والدكتاتور فى ٢٦ تشرين الأول ولكن بعض أفراد الجيش البيمونتى أخذوا يهزأون بجنود غاريبالدى وقلة ضبطهم وسوء لباسهم ، وراح جنود غاريبالدى يظنون بأن البيمونتيين إنما أتوا ليغتصبوا منهم انتصاراتهم ، وكان الكثيرون منهم من الجمهوريين والدموقراطين الذين حز فى نفوسهم أن يروا إيطاليه الجنوبية تترك لحكومة كافور ، بيد أن الجميع كانوا يتحسسون حساً قومياً صادقاً . وحال وجود العدو على جاريجليانو دون انفجار الغضب ثم حوصرت مدينة كابوته وسرعان ما سقطت ، ثم تقدمت على أثر ذلك قوات بيمونته الرئيسية لمهاجمة جند آل بوربون فى مواضعهم الحصينة على نهر جاريجليانو ، وقد استطاعت أن تجتاز النهر وأن تضطر العدو إلى الانسحاب إلى قلعة (جاتبه) . وفى ٥ كانون الأول بدأ الحصار ، واجتاز الملك نابولى على المركبة وبجانبه غاريبالدى وكانت الجماهير تستقبلهما تحت المطر استقبالا عظيما ولعل التصفيق لغاريبادى كان أشد حرارة ثم حنق غاريبالدى لأسباب منها تعيين فارينى صديق كافور الأمين حاكما على نابولى ومنها أنه يوم دخول الملك نابولى طلب أوسمة للقيادة ورتباً لجميع ضباطه فى الجيش البيمونتى بعد أن عرض نتائج الاقتراع العام وتخلى عن عنوانه الدكتاتور فلم يجبه الملك إلى طلبه فوراً

وأجاب بما لم يرض غاريبالدى فانصرف ، ثم حاول الملك بعد ذلك أن يلاطفه إلا أن غاريبالدى رفض هدايا الملك وطلب إليه حمايته المتطوعين ومنحه عنوان نائب صقليه مدة سنة فوافق الملك على أن يبقى المتطوعون فى مناصبهم الحالية إلا أنه رفض كل امتياز يتعلق بالنيابة فأبحر غاريبالدى مع بضع مئات من رجاله إلى كابريره وفى جيبه قليل من الدراهم وفى حقيبته قليل من الفاصوليه وذهب إلى مزرعته ، وفى خطابه الذى ودع به المتطوعين ناشد الناس الولاء للملك ودعاهم إلى التمسك بالانسجام والوحدة ، وراح ينتظر حلول الربيع حيث يهرع مليون نفس إلى تقلد السلاح لفتح روما وفنيسيه وضمهما إلى الوطن . وكان فرنسوا قد تحصن فى قلعة جايته مع عشرين ألفاً من الجند ولم يجد له فى محنته صديقاً سوى نابليون الذى عارض فى حصار القلعة من البحر وظل أسطوله يراقب الجانب البحرى ليحول دون الحصار من قبل الأسطول البيمونتى إلا أنه أذعن أخيراً لإلحاح الحكومة الانجليزية وسحب أسطوله . وقد كابدت المدينة أضرار القصف وتفشى فيها مرض التيفوئيد وأخيراً أدرك فرنسوا أنه خسر المعركة فاستسلم فى ١٣ — شباط ١٨٦١ ، ثم استسلمت قلعة مسينة بعد ذلك لشهر واحد وبسقوط قلعة . (سيفيتلكلا ديل ترونتو) ، فى البروزه فى ٢١ — أذار انتهى عهد آل بوربون .

الفصل الثانى والثلاثون

المملكة الجديدة

١٨٦٠ — ١٨٦١

ها هى إيطالية تصبح إحدى الدول الكبرى فى أوربا ومع أن النمسة لا تزال تحكم فنيسيه وتراتينه وكان البابا بفضل الحماية الإفرنسية يملك روما ولاكو ماركه ، فإن المملكة الجديدة تعد واحداً وعشرين مليوناً من النفوس . حقاً لقد أصبحت الوحدة الإيطالية التى كانت أضحوكة السياسيين والتى بشر بها مازينى وبعض المؤمنين ولم يعتبرها أكثر القوميين — حتى فى الأوقات الأخيرة — إلا احتمالا بعيداً — لا أمراً واقعاً ، تلقوه حتى المعارضون بسرور ، وأنسى الزهو القومى الرجعيين وأنصار الحكم الذاتى مثلهم الضيق إذ صاروا يشعرون بأنهم مواطنون ينتمون إلى أمة عظيمة ، وقد تم هذا العمل الجبار فى ثمانية عشر شهراً وكانت الأخطار التى حدثت فى سنة ١٨٤٨ قد زالت ، ثم انتظر الناس عشر سنوات أخرى وأحسنوا فيها ضبط أنفسهم وعملوا كيف يسيرون إيطاليه كلها . وقد حدث فى ساعة ما توتر خطير بيد أن العقل ووطنية جميع الأحزاب صانت غاية الكفاح من المشاحنات الحزبية . وكانت

أهم معضلة جابهها زعماء الأمة ورجال الحكومة تدعيم كيان هذه الأمة الفتية ، وكانت أعظم مصاعب هذه المعضلة قضية الجنوب وانسجامه انسجاماً كلياً مع الشمال . ومما قاله كافور إن إيجاد الانسجام بين الشمال والجنوب أشق من مقاتلة النمسة أو غزو روما . وكانت طريقة الرئاسة على الرغم من أنها ملغاة نظرياً منذ مدة طويلة لا تزال مرعية فعلا فالقروى كان لا يزال يشتغل بالسخرة ويبيع ما ينتجه لسيده الشريف ، وكان هذا الشريف مولاه ودائنه معاً ، يستغله مثلما يريد ، فضلا عن أنه كان يقبض على زمام الحكومة المحلية ويستخدمها فى مصلحته الخاصة . أما الفتن فكانت من العلل المزمنة فى الجنوب ففقراء الأيالات الذين لا يملكون أرضاً ولا يجدون عملا يتركون مساكنهم بالمئات ويؤلفون العصابات ليكسبوا رزقهم بالنهب والسلب . وكان شعار كافور فى سياسة الجنوب « التوحيد للإصلاح والإصلاح لتوطيد الأمور » ، ولعل الفساد العام الذى ظهر فى الإدارة بعد سقوط آل بوربون أشد خطراً من انحطاط الأخلاق ، وكان مما أجج حماسة بعض الأهلين للثورة أملهم فى الحصول على الوظائف بعد فوزها ، فأخذ الجمهور يملأ الساحات والدهاليز فى كل وزارة ، وكانت جمعية الكامورا الخفية تمتد إلى كل ناحية ، وأخذت جماعات الأفاقين تنساب نحو نابولى وتدعى بأنها من المتطوعين . وأخذ الغاريبالديون الغير الصادقين الذين لم يشموا رائحة البارود يطالبون بنصيبهم من الربح ، ويقبضون

القديمة من أنصار آل بوربون ، ويتآمرون لقلب كل وزارة . وعمت الفوضى فى الأيالات ، وكان فساد حكومة آل بوربون قد قضى على ثقة الناس منذ مدة طويلة ، وقد شجعت مقاومة فرنسوا فى قلعة جايته أنصار آل بوربون وأخذ وا يرفعون رأسهم ، وكان معظم كبار الملاكين فى أيالات البروزة ولاباسليكانه وكابريه من أنصار الأسرة الساقطة . أضف إلى هذا أن الاكليروس فى المدن والأرياف كانوا فى جانب الملاكين المذكورين وأعداء للاحرار . ومع أن الشقاوة كانت وليدة أسباب اجتماعية إلا أنها أصبحت أداة سياسية بيد العملاء المرسلين من جايته وروما لتحريض العصابات على النهب والقتل فى سبيل العرش والكنيسة ؛ فقد كان فى نابولى أناس من طراز الذين رأيناهم فى باليرمو ، ومع أن الفساد لم يعم صقليه كما عم فى شبه الجزيرة فكان هؤلاء يتآمرون على الوحدة ويقفون فى وجه الانسجام وفى طليعة هؤلاء الموظفون الذين فقدوا وظائفهم وصنائع كريسبى وموردينى الذين أصبحوا يخشون أن يفقدوها والمتطوعون الذين تركهم غاريبالدى فى الجزيرة واللصوص والسفاكون الذين قاتلوا فى الثورة ولكنهم حرموا من الغنيمة ، أفلا يجدر فى بلد انتشر فيه الفساد إلى هذا الحد أن يتولى شؤونه دكتاتور إلى حين ؟ لقد كانت أمنية غاريبالدى وجود الدكتاتورية مع أنه كان السبب الأول لهذه الفوضى ، ومهما يكن الأمر فينبغى الوصول إلى طريقة تساعد الحاكم على توطيد الأمور من دون أن يخشى تدخل الحكومة

المركزية أو مجلس الأمة . وأوصى فارينى بإرسال ريكاسولى مؤقتا إلى صقلية مزوداً بسلطات واسعة ، ومع أن ريكاسولى رفض هذا التكليف فقد أوصى بإقامة دكتاتورية عسكرية ، غير أن كافور كان لا يريد أن يصغى إلى هذه الوصايا ، لأنه كان يخشى أن تمس سمعة البلاد فى نظر إنجلتره وأوربا ويقول : « النضال من مقتضيات الحكومة الدستورية » ، ورفض الملك أيضاً بأن يصغى للوصايا من دون قيد ، وحجته فى ذلك أنه لا يريد أن يحنث بيمينه الدستورية . وبعثت الحكومة (مونته زومولو) نائباً للملك فى صقلية وأرسلت معه لافارينا وكوردونه ، وكانت إدارة الشرطة فى الجزيرة بيد صنائع كريسبى وموردينى ، فتآمرت ضد نائب الملك ووضعت العراقيل فى وجه الإدارة الجديدة فاضطر إلى ترك الجزيرة .

أما صعوبة الحكم فى نابولى فكانت أشد منها فى صقلية . بعثت الحكومة فارينى نائباً للملك فى نابولى ، إلا أن هذا أيضاً لم يوفق فى مهمته فتآمر ضده أنصار البوربون والغاريبالديون وأنصار موارت ، وكتب بعض الدموقراطيين بعد أن خاب رجاؤهم إلى كافور يرجونه أن يستدعى فارينى قبل أن تخسر المملكة نابولى . وكان الخطر المباغت يتأتى من الشقاوة التى كانت ترفع رأسها من وقت لآخر وتجد ملجأ لها فى الأحراج الكبيرة والجبال الوعرة ، وقد انتشرت فى المنطقة الجبلية فى جوار (تاجليا كوزو) من أيالة أبروزة طول الشتاء ، وكان يقويها أنصار البابا الذين

يخزنون السلاح فى الأديرة المجاورة ويجهزونها برجال يستقدمونهم من روما لتأليف العصابات مما أدى إلى اشتداد حقد الوطنيين على البابا الذى يهب الأشقياء حمايته . وكان فرنسوا فى روما يدبر الدسائس بنشاط فتآمر مع المجرمين السابقين واستخدامهم فى النهب والقتل ، وكان على اتصال بالدجان المنبثة فى جميع أنحاء الجنوب ، أما الاكليروس الذى زاد غضبه بسبب الإصلاحات الاكليريكية الحديثة فأخذ يعمل فى شوق لإلحاق الضرر بالحكومة الإيطالية أو إسقاطها ، وأخذ الجنود المهاربون ينخرطون فى سلك العصابات لكيلا يعودوا إلى وحداتهم .

ولم تكن قضية نابولى سوى أخطر مظهر لمعضلة تناولت جميع الدول الملحقة بيمونته ، فمع زعامة بيمونته قد قبلها بصدق وإخلاص أغلب القوميين فإن الحركة القومية فى بيمونته أصبحت تحت تأثير فكرتين مختلفتين أشد الاختلاف : الفكرة الأولى ويعتنقها الرجال القدماء المحدودو الفكر والنافذون فى الإدارة والجيش وهى تقول بأن تحكم إيطالية وتدار من قبل البيمونتيين وهى تنفر من كل دعوة لنقل العاصمة من تورينو ، وكانت ترضى فكرة وجود إيطاليه الكبرى آملة أن تسيطر قوانين بيمونته وآراؤها على جميع الأيالات الملحقة ؛ أما الفكرة الثانية فيعتنقها الفريق الواسع النظر من أركان الجمعية القومية والذى يترأسه كافور . فهذا الفريق كان يدرك بأن دولة صغيرة ذات أربعة ملايين من

النفوس لا تستطيع أن تتحكم وأن تستأثر فى مملكة يبلغ نفوسها أكثر من عشرين مليوناً ، فما على بيمونته إلا أن تندمج فى إيطاليه على كل حال ، ولم تكن قوانين بيمونته تضاهى قوانين لمبارديه وطوسكانه وبارمه ، ونابولى فى كثير من النقاط ، فلا يمكن إدخال نظام بلدياتها من دون استثارة كثير من الحنق مع أن الأمل فى نجاحها ضعيف فى مناطق طوسكانه ولمبارديه التى كانت تتباهى بتقاليد حياتها البلدية القديمة المديدة العمر ، فضلا عن أن مدينة تورينو واقعة فى طرف إيطاليه ، ليس لها تذكارات تاريخية وفنية ولا يمكن أن تكون عاصمة دائمية لشبه الجزيرة ، وكانت ميلانو وفلورنسه ونابولى وباليرمو تتمسك بشرف قاعدتها وتتذمر من فكرة التخلى عن مقامها لأية مدينة أخرى سوى روما ، وأخذ بعض المستائين يندد بيمونته زاعماً بأنها احتكرت مناصب الحكومة وقدمت الموظفين البيمونتيين فى المناصب الفنية ووجهت التجارة والصناعة نحو قاعدة الحكومة وأهملت شؤون الدول الأخرى .

وقد قربت هذه الحوادث وتلك المخاوف بين ريكاسولى وكريسبى مع أنهما كانا يحملان نزعتين مختلفتين ، وساقتهما إلى معارضة الفكرة البيمونتية ، وقد أعلن (بيسولى) فى كلمات مبالغ فيها أن الإدارة البوروقراطية فى تورينو أكبر عدو لإيطاليه . وكان ريكاسولى قد شن حرباً شعواء على فكرة إدخال القوانين البيمونتية فى طوسكانه وطالب بإدارة شبه مستقلة لدولته . وكان

كافور يؤمن كل الإيمان باللامركزية وعين فى شهر تموز لجنة لوضع مشروع حكومة محلية ، وقد شرح فارينى بصفته وزيرا للداخلية أمام تلك اللجنة الاقتراحات التى ربما أوحى إليه بها كافور ، وتتلخص زبدة مشروع فارينى بتأسيس دوائر محلية كبرى تدعى بالمناطق تكون واسطة بين الأيالات والدولة ، وتكون فى مراكز الحياة الإيطالية الطبيعية ، على أن لا تنطبق حدودها بأى صورة كانت على حدود الدول القديمة خشية تشجيع نزعة الحكم الذاتى فهى والحالة هذه عبارة عن وحدات إدارة ليس لها مجالس منتخبة ، وكان فارينى يستهدف بمشروعه هذا أن تستند هذه الوحدات كما فى السابق إلى مجالس الأيالات التى تسيطر على الطرق والأنهار والصحة العامة والتعليم الثانوى والصناعى والمؤسسات الخيرية المهمة .

أما الذين كانوا يرون بأن عمل الدولة يجب أن يكون نافذا واسعا فكانوا يطالبون بمركزية أكثر سعة . ومنهم من يرغبون فى تمشية الأمور ويعارضون مشروع المناطق ويرون أن من شأنه أن يقيد نشاط الحكومة المركزية وتدخلها . وفى الحقيقة أن البون الشاسع بين الشمال والجنوب كان يتطلب معالجة الأمور فى الجنوب بتدابير خاصة . وفى صقليه قبلت اللجنة التى عينها غاريبالدى فى آخر عهد دكتاتوريته بأن تمنح سلطات نائب الملك لنائب كل منطقة مما ينافى حقوق السلطة الاجرائية المركزية . أما فى القارة فقد ألفت المنافع بين الاتحاديين والجمهوريين والبوربونيين فى نابولى

وجعلت منهم عصبة تصر على الاحتفاظ بالمؤسسات القديمة واتخاذ نابولى عاصمة . واشتدت بعد ذلك حركة قوية تدعو الى مضاعفة أهمية المناطق (ليس لتقليدها أهم سلطات الأيالة فحسب) بل يجعل المالية والإدارة فيها شبه مستقلة عن البرلمان والحكومة المركزية . وأنيط بمنجيتى وزير الداخلية بعد تعيين فارينى لنابولى أن يضع مشروعا جديدا ، وكانت اقتراحاته على العموم تطابق فى خطوطها العامة مشروع سلفه ، فاستهدف فى مشروعه تحوير الطريقة الأفرنسية بتخليص الناحية أو الأيالة فى كل مراقبة مباشرة يقوم بها موظفو الحكومة المركزية ، وينتخب النقيب (العمدة أو الوكيل) من قبل الناحية ، وتصبح المجالس فى الأيالات مستقلة عن الوالى ، وتتمتع بصلاحيات أوسع من تلك التى اقترحها فارينى ، فمجلس المنطقة الذى ينتخب من قبل مجالس الأيالات يدير بالاشتراك مع حاكم المنطقة شؤون التعليم العالى بما فيه مراقبة الجامعات والطرق الأميرية وأشغال النافعة الكبيرة ، ويمارس بعض السلطات التشريعية المتعلقة بالزراعة ، ويتمتع بحق اقتراح قوانين جديدة تعرض على البرلمان لتصديقها ، وبهذا يكاد الحاكم أن يكون نائب الملك ، إذ هو الذى يشرف على إدارة الولاية ويمثل الحكومة المركزية فى كثير من الأمور . وكان منجيتى يرى أن يجرب طريقة المناطق مدة من الزمن تساعد على الانتقال من الحالة القديمة إلى الحالة الجديدة . أما أنصار الحكم الذاتى فلم يعلقوا أهمية

كبيرة على اقتراحات ترمى إلى تجزئة طوسكانة أو إدخال بارمه ومودينه فى أميليه ، ثم وجهت إلى المشروع معارضة وطنية شديدة من قبل الذين كانوا يخشون أن مشروع المنطقة يجر إلى فكرة الاتحاد ويصبح عثرة فى سبيل تقوية المملكة وتوحيدها ، وخشوا كذلك أن يصبح الحكام شبه المستقلين ساعتئذ خطيرين جدا ، مع أن الظروف فى ذلك الوقت إنما تتطلب قيام حكومة مركزية متينة . ثم درس كافور الحالة وغير رأيه وعزم على الأخذ بالطريقة المركزية وتأجيل فكرة الحكومة المحلية إلى حين آخر . وعلى الرغم من توسلات ريكاسولى سلبت طوسكانة استقلالها الإدارى فى ١٤ شباط وبعد مرور شهر قام بالعمل نفسه فى نابولى وصقلية ثم حل وزارته ، وألف وزارة جديدة أدخل فيها أعضاء من ممثلى جميع الدول القديمة ، وقصر سياسته وقتئذ على تأسيس حكومة قومية واحدة قوية تخسر بها بيمونته كثيراً مما كانت تتمتع به سابقاً إلا أنه يقضى بذلك على اتهام تورينو بالجشع ويحصل على قرار من البرلمان باتخاذ روما العاصمة فى المستقبل .

وأخذ شوق الناس إلى امتلاك روما وفنيسية يزداد لهفة ويهصر حياة الأمة الداخلية فى كل لحظة ، وفيما يتعلق بفينسيه فعلى الرغم من مطالبة غاريبالدى بالشروع بالهجوم فى الربيع القادم فإن الناس أدركوا ضرورة الصبر الآن ، وبما أن غاريبالدى كان قد سرح الجيش النابولى وأن ما بقى منه ظل على إخلاصه لفرنسوا فقد خابت آمال كافور فى مضاعفة قوة الجيش الإيطالى بإدماج

القوات البوربونية فيه ، فصحيح أن الملكة كسبت الأسطول النابولى ، ولكن لم ينخرط فى سلك الجيش الوطنى غير ثلاثة آلاف ضابط وعدد قليل من الجنود ، ولم يبق فى اليد سوى أربعة آلاف من المتطوعين . وأخذ كافور يقول : « نحتاج فى سبيل تنظيم الجيش إلى سنتين ، فيجب أن نتمسك بالسلم طيلة ذلك الوقت » ، وقد صمم كافور على أن لا يعيد المعونة الضارة من فرنسه إلا إذا الجأته الظروف إلى ذلك . ومع أن الحرب ضد النمسه من شأنها أن تعجل الاندماج بين الشمال والجنوب باخوة السلاح فإنه ظل يحذر المخاطرة ويسعى لمنع كل حركة اعتداء على فنيسيه من قبل القطعات غير النظامية ، وكان يفضل أن ينال فنيسيه بطريقة المفاوضات السلمية مع النمسه على أخذها بقوة السلاح لأنه كان يأمل بأن المصاعب الداخلية التى تجابهها النمسه وكثرة النفقات التى تتكبدها فى سبيل الاحتفاظ بجيش كبير فى فنيسيه ونمو الآراء الحرة فى المجلس النيابى الجديد فى فينا ؛ كل ذلك قد يؤدى إلى حل سلمى بين النمسه وإيطاليه لقضية فنيسيه . وقد صدرت رسالة أخرى فى باريس فى ١٤ كانون الأول توصى ببيع فنيسيه لإيطاليه على ان تشترى النمسه مقابل ذلك ايالتى بوسنه والهرسك ، ولما فشل الحل السلمى ولاح لكافور أن الحرب آتية عاجلا أو آجلا اختمر فى رأسه مشروع الحلف مع بروسيه فأوفد الجنرال لامارمورا إلى برلين ليرفع الاقتراحات الملك الجديد وليقنع رجال الدولة البروسية ان الروابط الطبيعية بين إيطاليه وبروسيه تحتم عليهما بأن تصبحا صديقتين .